حسنين بن عمّو

الكرّوسة

مكتبة نوميديا 208
Telegram@Numidia_Library

حسنين بن عمّو

الكرّوسة

وحكايات أخرى

الكتاب :
الكروسة

المؤلف :
حسنين بن عمو

ص.ب.: 69 الرمانة 1068 تونس
hasbenammou@yahoo.fr

الغلاف :
من تصميم المؤلف

الطبعة الثانية 2005

©جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ر.د.م.ك.. 2 ـ 208 ـ 31 ـ 9973

تم طبع وإنجاز هذا الكتاب في :

الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم
SOTEPA GRAPHIC
1، نهج محمد رشيد رضا ـ 1002 تونس

الهاتف : 933 790 71 ـ 380 894 71 / الفاكس : 313 790

تونس
2005

كروستنا هذه، هي وسيلة ركوب أخرجتها من مستودع الأيام ونفضت عنها الغبار للقيام بجولة في بعض ثنايا الماضي.

ركوبها يمكن أن يكون ركوب متن الواقع أو ركوب متن الخيال وهو في آخر المطاف ركوب تجوال لا غير يروح عن النفس وينسي واقع اليوم لبعض اللحظات باستعادة الماضي في بعض اللّحظات .

وفي النهاية ما الحياة إلا لحظات . . .

ح.ب

الاهــــــــداء

إلى

سبريــــــن، وردة بستـانـي الأولى

إلى

ســـــراج الديـــــن، سياجـــه

ومُكمِـــل زينتـــه.

سـرٌّ فـي سـوق النّسـاء

كانت سـوق النّساء تعجّ كالعادة بالنّسوة من مختلف الأعمار والأحجام وكانت تعيـش على وقع اللّغط وصياح الـدّلاّلات والبائعات، وكانت ألوانها المتعدّدة هي ألوان ما يعرض فيها من أقمشة وألبسة مختلفة وفرش مطرَّزة وستائر قديمة وجديدة... ولا أزيدك فقد كانت سوقا بكل ما تحمل الكلمة من مدلول خصوصا أنها تقع في قلب المدينة ووسـط أسـواق أخرى متعددة الاختصاصات، وقد سمّيت سوق النساء لأن أغلبية مرتاديها من النساء.

كنت أنا من بين هؤلاء النّسوة والفتيات الفقيرات اللاّتي يأتين يوميا إلى هذه السوق، وكنـت اخترت ركنـا أجلس فيه وأعرض بضاعتي الشّـحيحة دون أن أجتهد كثيرا في الإعلان عنها لبيعها، فقد كنت من اللواتي لا يصلحن للتجارة، بل كان همّي الوحيد التفرّج على النساء وسماع حكاياتهن ونقلها في المساء إلى بعض صديقاتي.

ذات صباح دخلت السوق زميلة جديدة ظهر لي وقتها أنها في مثل سنّي لكنها كانت أجمل مني بكثير، ولم أدر لماذا لم أستطع تجاهلها ولماذا لم تثر غيرتي أو ذلك الجانب العدواني في نفسـي بل بالعكس أحببت تلك الفتاة من أول وهلة وأردت بكل بساطة أن تكون صديقتي.

كان وجهها لا يدلّ أبدا على أنها من بنات طبقتي الفقيرة... لذلك بدت لي كأنها خرجت من دار كبيرة وأن الزّمن الغدّار فعل بأهلها ما فعل حتى شتّتهم وألقى بها هي إلى الطريق والى سوق النّساء...

كانت تأتي كل يوم إلى السّوق باكرا فتجلس صامتة قرب عتبة دكان خيّاطة يهودية حتى أصبحتا صديقتين تتبادلان الحديث وفطور الصّباح قبل أن تنصرف كلتاهما إلى شغلهما، فاليهودية تنكبّ على "ماكينتها" وصاحبتي تفتح "صرتها" وتنشر ما خاطته هي أو أمها أو أختها من ملابس رقيقة تنمّ عن ذوق رفيع.

أصبح فضولي أقوى من العناية ببضاعتي وبتتبّع حكايات النّساء. فلم يهدأ لي بال حتى تقرّبت من الفتاة وصرت رفيقتها في الجلوس فقط، فقد رفضت أن أقاسمها الطريق ولم أعرف وقتها لا من أين تأتي ولا إلى أين تروح فلا نتزاور ولا نلتقي أبدا خارج السوق.

كانت دليلة، وهذا هو اسمها، والله أعلم هل كان اسمها الحقيقي أو اسما مستعارا، كانت جميلة جمالا حيّرني، جمالا أخّاذا.. صامتا حزينا عميقا مبهما، لا أدري، كانت فقيرة جدّا وصبورة جدّا وغامضة جدّا وطموحة جدّا وتحبّ الحياة بطريقة كانت تخيفني في بعض الأحيان، ولطالما حاولت استدراجها للحديث عن أهلها لمعرفة سرّ من أسرارها أو حتى نتف عن حياتها فلم أفلح، وزاد ذلك في إذكاء جذوة الفضول عندي فقررت أن أتجسّس عليها. نعم، وما المانع في ذلك ؟ أريد فقط أن أعرف من تكون هذه التي لا وجهها ينبئ بحياة الفقر والتعاسة رغم ظهور ذلك على حالتها ولا شعرها الطويل المنساب على كتفيها ولاعيناها الزرقاوان ولا بشرتها الرّقيقة ولا قوامها الرشيق ولا كلامها الطّليق ، لا شيء يدلّ على أنها من طبقتي أو حتى من طبقة أرفع بقليل.

وعرفت ذات يوم عن طريق الصدفة أنها تحب تاجرا شابا في سوق الصّوف، ولم تبح لي هي بذلك بل كتمت عني سرّها رغم أنى نجحت، أو هكذا خيّل إليّ، في أن أصبح رفيقتها الحميمة ومن حقي حتما أن أعرف على الأقل أخبار ما نعيشه سويا في السوق، لكنها أخفت عني هذا الغرام الصامت، لذلك قررت أن أعرف.

عــاودت للمرّة المائة دعوتها إلى التعرف على أمــي وإلى زيارة دارنا الخربة وتنــاول الفطور معي، فرفضــت. طلبت منها أن تعرّفني بأمها أو بأختها أو بأية قريبــة أخرى لها، فرفضت، غمزت إليها بدعوتي ولــو مرّة واحدة لزيارة بيتها لكنها زاغت بالحديث إلى موضوع آخر بعدما نظرت إليَ نظرة ناهرة أســقطتني مــن عليائي المتواضع، لذلك قررت أن أتبعها ذات يوم عن بعد دون أن تتفطن فــكان لي ما أردت، فقــد رأيت تاجر الصّوف يتبعها متصنّعا اللاّمبالاة كأنه في طريقــه لقضاء حاجة ما، وكانت هي تتوقف أحيانا أمام دكّان أو محلّ متظاهرة بالنّظــر في البضاعة المعروضة أو تتوقف عند منعطف لتصلح وضع سفســاريها المرقّع ؛ آه من ذلك السّفســاري المرقع؟ لا أدري لماذا شغلني ذلك السّفساري* البسيط ؛ كنت أظنّ ومازلت إلى اليوم، واعتقادي غير خاطئ، أنّ رقع السّفساري كانت هي السّــبب المباشر، الظّاهر أو الخفي في إضفاء سحر خاص على جمال صاحبتي وجعلها تكون جذّابة بذلك الشّكل الذي أعجز عن وصفه لأنه شعور داخلي لا أجد الكلام المناسب لإبلاغه.

كان التاجــر يتجاوزها مرة بعدما يهمس لها بكلام ثم تلتحق هي به وتتجاوزه وتقــول له هــي بدورها كلاما لتجيبه عــن كلامه حتى اختفى الشــاب في أحد المنعطفات وواصلت هي طريقها.

كانــت تلك هي المرّة الوحيــدة التي تبعتها فيها وعرفت السّــر أو هكذا ظهر لي، وكان أيضا اليوم الأخير في علاقتنا، والسّــبب في ذلك، بلاهتي وعدم يقظتي، فقد ســرحت بخيالي وأنا أتبع رفيقتي فتصوّرت أشــياء عدّة ونســيت الحذر فاقتربت منها اكثر من اللازم حتى فاجأتني في منعطف ســاحة رمضان باي بنهج الباشا.

ووقفنا فجأة وجها لوجه.

نظــرت إلي بعينين حانقتين جميلتين غامضتين ولم تكلّمني ولم تشــر إليَ بأية إشارة ثم دارت على أعقابها ومشت كأنها أسقطتني تماما من ذاكرتها.

أمّا أنا فقد تســمّرت في مكاني بعدما انتابني شعور غامض مازلت أشعر به إلى اليوم رغم مرور سنوات عديدة على هذه الحادثة.

في الغد ذهبت إلى سوق النّساء في ساعة مبكرة جدا على غير عادتي وكان في ذهني الاعتذار لرفيقتي الجميلة، لكن الساعات مرّت، ومضى من اليوم نصفه ولم تأت دليلة، ولم أبع يومها ولو قطعة من بضاعتي، فقد كان عقلي مشغولا بهذا الغياب المفاجئ، وعاتبت نفسي وقرّرت أن لا أتدخّل مستقبلا في حياة صاحبتي.

انفضّت السّوق ولم تأت دليلة، ومرت أيام أخر، وتعاقبت الأسابيع والأشهر والسنوات ولم أر دليلة.

كبرت أنا وأصبحت فتاة ناضجة لكني محدودة الطموح مقتنعة بوضعي.

وذات يوم دعتني الحاجة إلى المرور بنهج الباشا.

كنت أمشي وعقلي تائه كالعادة في أحلام لا حدود لها وفجأة انتزعتني من خيالاتي صيحة سائس كروسة :

ـ اِبْعِدْ... شِدْ الحِيطْ... اِبْعِدْ...

التصقت بالحائط ونظرت إلى نافذة الكروسة.. فرأيتها.

إنها هي... دليلة صاحبتي في سوق النساء، وأظن أنها رأتني، ودون أن أشعر جريت محاولة اللحاق بالكروسة وتمكّنت من ذلك واستطعت الإمساك بواقية العجلات، وقفزت على العارضة الخلفية وتوصّلت بعد عناء إلى طرق النافذة الخلفية.

خيّل إليّ أن السّتارة ستنزاح عنها وسأرى وجه صاحبتي وهو يبتسم إليّ ثم يأمر السّائس بالتوقّف. ولم يتحقّق لي ذلك... فقد لسعتني ضربة سوط السّائس الذي تفطّن لوجودي، وكانت لسعة خبيثة جدّا بقيت آثارها طويلا على زندي وظهري.

وسقطت على الأرض، ولم تُزح الستارة الحمراء عن النافذة.

وابتعدت الكروسة وفي قلبي جرح عميق، ولم أدر هل تفطنت دليلة لوجودي وأمرت السّائس بعدم التوقّف أو أنها لم تتفطن لي حقيقة ولم تتعرّف عليّ ونسيتني تماما. لا أعرف... لا أعرف...

كان هذا منذ ستين سنة أو أكثر، ولم أعثر على صاحبتي إلى اليوم وعمري الآن شارف على التّسعين أو أكثر...

***

هكذا حدثتني عجوز تنتقل معتمدة على عكّاز بعدما دهمها تلميذ عابث كان يجري وراء رفيقه فأسقطها أرضا وكان ذلك بأحد أنهج المدينة العتيقة...

وكنت حاضرا لمساعدة العجوز على النّهوض من سقطتها.

وكانت هذه الحكاية...

السّفساري : رداء تلتحف به المرأة في الحواضر التونسية وهو أنواع حسب الجهات، فمنه المنسوج بالصوف الخشن أو بالصوف الرفيع ومنه المنسوج بخيوط الحرير.

مبـــروك الوُصِيـــفْ...

توقــف التّجار وجموع المــارّة على جانبي الطّريق المؤدية إلى "ســوق البركة" ليتمكنوا من مشــاهدة القافلة التي طال انتظارهم لها وقيل عنها الكثير، فهي اكبر قافلة على الإطلاق وربما تكون الأخيرة من نوعها حسب ما راج في البلاد من أخبار تقول : انّ المشــير أحمد باي ســوف يلغي الرّق وبالتالي لن يباع أي عبد في سوق البركــة، لذلك تطلّع الوجهاء وأصحاب المــال إلى أخبار هذه القافلة المحمّلة بالعبيد "الوصفان" القادمين من السودان ومن البلدان الإفريقية الأخرى.

كان المنظر ســاخنا في كل معانيه، فاليوم خريفي حارق، والجمال المحمّلة بشتى أنواع الســلع تنوء تحت ثقل راكبيها الذين تلحّفوا بأنواع من القماش غلب على ألوانه الأحمر الفاقع.

لاح أخيرا الغبار المتصاعد من ذيل القافلة التي شــارفت ســوق البركة فتجمّع الفضوليون والتجار والأســياد والخدم استعدادا لاختيار وصيف أو وصيفة أو حتى مجموعــة من الوصفان لشــرائهم والعــودة بهم إلى الديار العامــرة وبعض القصور الأميرية.

أنيخت الجمال وأنزلت السّــلع وسرح بعض مرافقي القافلة نحو الفنادق بينما جلــس النخّاســون أمام الحوانيت لأخــذ نصيب من الراحــة والتحدث إلى بعض معارفهــم في حين انصرف الخــدم إلى إعداد المصطبة لعــرض العبيد والى تصنيف

الرجال والنساء منهم ووضع الأطفال والشبان جانبا على "الدُكانات" وفي الأماكن المخصّصة لهم حيث يبركون في انتظار "حفل" العرض لبيعهم وتصريفهم إلى المصير المجهول.

كان من بين الواقفين، رجل شارف الخمسين لباسه يدلّ على وجاهته وعلى مكانته في السّوق وفي مجتمع الحاضرة، حتى أن أحد معارفه لامه على اختلاطه بالتجار الصّغار وبالنخاسين وعدم اختياره لموقع أفضل قرب كبار رجال السوق، وكانت الإجابة ذات أبعاد دلّت على أخلاق الرجل.

ـ ما كان لي أن أقف لاشتراء بشر مثلي لولا الحاجة ولولا تدبير النساء، لكن ما باليد حيلة، فلا أنا أول من يشتري عبدا ولا آخر من يفعل ذلك، وكلما حضرت إلى هذه السوق حضرتني قولة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا..."

ضحك المرافق لهذه الملاحظة دون أن يفهم مراميها وقال :

ـ ياسي مصطفى.. لقد دأب آباؤنا وأجدادنا منذ القدم على تعاطي هذه التجارة، ولا تخلو دار من دورالعرب قاطبة من عبد أسود أو خادمة سوداء، فهل تنوي قلب الموازين، وهل أنت من جماعة المساواة بين السيد والعبد ؟

لم يجبه سي مصطفى بل انصرف بالنظر إلى اختيار وصيف يافع يعود به إلى الدار باعتباره هدية له ولنسائه.

بدأت عملية البيع في نفس اليوم وكان من المفروض أن تنال القافلة نصيبا من الراحة وأن يقع البيع بعد يوم أو يومين من وصولها إلى سوق البركة، لكن أمين السوق خرق هذه القاعدة بإيعاز من بعض أعيان التجار حتى لا يقع التفريط في السلعة إلى تجار مزاحمين من الجزائر.

***

راح الدّلال يصول ويجول ويحكي أهوال الطريق ومغامرة الظّفر بهذه السّلعة الآدمية الغالية التي جاءت هذه المرّة كأفضل ما يكون، فلا الأثمان تعلو على هذه

الكنوز السـوداء، ولا آلاف الدراهم تغطّي القيمة الفعلية لهؤلاء العبيد الأقوياء، ويا سعد من سيشتري اليوم، لأنه سيظفر حقيقة بما لم يظفر به غيره.

احتدّ اللّغط، وبدأت المساومات، وأخذت الأسعار تقفز من عشرة إلى المائة إلى الألف في أقل من نصف ساعة واشتدّت حرارة السّوق واختلطت أصوات العبيد وعويلهم بأصوات النخّاسين والفضوليين، وحينها استرعى انتباه سي مصطفى وجود زنجي لا يتعدى عمره السـابعة عشرة، وقد جلس القرفصاء صامتا لا يشارك رفاقه لا في الكلام ولا في البكاء بل انصرف إلى التّحديق في سقف السوق كأنه غير معني بالمصير الذي ينتظره.

صاح سي مصطفى في أحد النخاسين مشيرا إلى العبد :

ـ أريد هذا..

وسرعان ما اقْتُلِعَ الوصيف الشاب من مجلسه ودفع به إلى الدلّال الذي جرّه إلى المصطبة وأخذ يديره لعرضه على المتفرجين لكن سـي مصطفي أوقفه عن الكلام بإشـارة من يده، وأنزل الوصيف من المصطبة وانتحى به ناحية ثم طفق يتحسّـس وجهه ويفحص عينيه وأذنيه وأنفه ثم فتح له فمه وأخذ يعدّ الأضراس والأسـنان وجـذب له لسـانه ليرى لونه وهل فيه علامة خاصّـة ثم نزل إلى عنقه وإلى صدره وبطنه ثم اسـفل بطنه ومنكبيه وسـاقيه وبعد ذلـك أداره وطلب منه الانحناء ثم الاسـتقامة ثم إعادة الانحناء إلى كل ناحية وبعد ذلك أشـار إلى "الجلاّب" لكي يأمـر الوصيف بالجري والقفز والقيام بالحركات اللاّزمة التي تدلّ على عدم إصابة "السلعة" بأي مرض أو عاهة خاصة.

ـ خمسمائة درهم...

وتقدم الدلاّل من الوصيف وأخذه من يده ثم مشى به خطوات في بطحاء السوق وهو يصيح بأعلى صوته :

ـ خمسمائة درهم... آش كون يزيد... خمسمائة.

تمادى الدلاّل في المناداة وفي تعداد محاسن العبد حتى أيقن أن السّعر المقترح لن يعلو عليه سـعر آخر وحينها تقدم من "الجلاّب " صاحب السـلعة ومن الشّاري

ووقف بينهما وأخذ يديهما ووضعهما في وضع المصافحة دلالة على الاتفاق وبذلك ظفر سي مصطفى بمبتغاه وتقدم من الوصيف قائلا :

ـ تعرف تتكلم بالعربي ؟

ونظر إليه العبد ببلاهة، ولم يدر ما يقول واكتفى بإظهار شـبح ابتسامة سرعان مـا اختفت حينما تقدم منه أحد خدم السـوق وربط يديه إلى ظهره بحبل غليظ وناول طرف الحبل إلى سي مصطفى قائلا :

ـ مبروك... مبروك عليك يا سي مصطفى.

قفل سـي مصطفى عائدا إلى داره وهو يقود الوصيف من الحبل، وكان يلتفت إليه بين الفينة والأخرى ليتطلع إلى مدى نجاح الصّفقة، وإلى مدى حسن طالع هذا الأسود عليه وعلى أهله ؟

احتار برهة في تسـميته، فهل سيدعوه مسعودا... أم مبروكا ؟ وقرر في آخر الأمر أن يحمل هذا الوصيف اسـم مبروك... وللدّلالة على تبرّكه بعبده الجديد توقف عن المشي وفكّ قيده ثم طبطب على ظهره وابتسم له ثم أشار إليه بالسير أمامه.

وصل سـي مصطفى والعبـد إلى الدار الواقعة في حومة بـاب البنات وكان في اسـتقبالهما بصحن الدار ثلاث نسـاء هن زوجات سي مصطفى وخادمة عجوز في لون العبد الجديد.

اقتربت الخادمة من الوصيف وأخذت هي الأخرى تتفحّصه وتتلمّسـه لاختبار مدى متانة جسمه ومدى قدرته على العمل وعلى إراحتها من بعض الأتعاب التي ألقيت على عاتقها بعد موت زوجها العجوز منذ شهرين.

ـ اسمـه مبروك... وأرجو أن يكون مباركا علينـا جميعا... لكنه لا يعرف كلمة واحدة من لغتنا، اعتني به يا فطوم وعلّميه.

نظر مبروك حواليه بشـيء من الدّهشـة وبكثير من الاستغراب، وأحسّ أنه لن يشـقى كثيرا، إذ يظهر أن كل شـيء مرتّب ولا أثر لما يدلّ على وجود أشغال شاقة

مثلما سمع عن ذلك وهو بارك في سوق البركة، وأحس فجأة أن كل الأنظار متجهة إليه بعدما دخل ســي مصطفى غرفته فخفض بصره وجلا ثم تجاسر وخطف نظرة نحو النســاء فرآهن جميلات وشعر بارتباك شديد فالتفت إلى فطوم كأنه يستنجد بهــا لأخــذه إلى مكان آخر والاعتناء به، ولم تبخل عليــه المرأة بعدما فهمت مراده وقرأت على وجهه علامات الضّيق والخجل فأمسكته من يده وقادته إلى غرفتها في فناء الدار حيث تركته وذهبت لإعداد حمام ساخن له.

***

استسلم مبروك إلى يد فطوم وهي تغسل جسده المتعب، وتذكر في تلك اللحظات كيف كانت أمه تدلّــله وتغسل جسمه سواء بماء النهر أو في مثل هذه القصعة التي أعدتهــا له فطوم، لكن فهمه لم يتوصــل إلى معرفة جدوى هذا الطين الفوّاح الذي وضعته على رأسه وراحت تدلكه بكل عزم.

ـ مَا عِنْدُكُمْشِ "طْفَلْ" في بلادكم يا مبروك ؟ وحتى الصابون مَا ظَاهِرْلِي.

لم يفهــم كلامها وعرف مــن لهجتها ومن نظراتها له أنها تبنّته فعلا وأنها بمثابة أمه التي اقتيدت مثله إلى حبال العبودية لكن في اتجاه مجهول، ولم تبق في ذهنه إلا صورتها وهي ملتاعة تصيح وتســتغيث وتترجّى باســتعطاف يقطع نياط القلب أن يتركوا ولدها معها... لكن من أين لهؤلاء التجار بمثل رحمة أمه ؟

ـ أنت أَكْحَلْ كِيفْ الزيتونة يا مبروك... اكحل مِنِّي بَرْشَة.

ورآهــا تضحك وهي تقول هذا الكلام ثم تنهضه وتلفه بمنشــفة كبيرة دون أن تلحــظ عليه ارتباكا من عرائه الكامل، فهو متعوّد على ذلك من زمان ولا يحرجه أن يتعرّى أمام هذه العجوز، لكن أمام نساء سيده الجديد فالأمر مختلف.

طبطب بحركة خفيفة على كتف فطوم المنشغلة بعقد الفوطة حول حزامه، ولما التفتت إليه أشار بإصبعه ناحية باب الغرفة الذي بقي مردودا بعض الشيء... وكانت تلك الحركة كفيلة بجعل المتلصّصة تختفي بســرعة، ولم تلحظ فطوم ســوى طرف ثوب أبيض ينسحب بسرعة، فتساءلت في حيرة شديدة وقد داخلها الارتياب :

ـ آش كُون زَعْمَة ؟ خير على خير...

ثم التفتت إلى مبروك وقد تغيّرت سحنتها ولهجتها وقالت له :

ـ الله يِحْسِنْ مِنّكْ الْعَاقْبَة يا مبروك... يا لِنْدَرَا أنت مبروك وإلا جَيَّابْ بْلَاء ؟...

***

مضت الأيام وفطوم تعتني بمبروك وتعلمه لهجة التوانسة فكان يعيد القول بتحريف محبب مما يثير ضحك النساء ويدفعهن إلى مزيد البحث عن كلمات صعبة لمزيد إرباكه.

كان يسعده أن يخرج برفقة فطوم إلى الأسواق لقضاء حاجات الدار فينبهر بعلامات المدينة وبالحركة الدائبة، وكان في بعض الأحيان يتعرّض إلى غضب فطوم وشتائمها لأنه كان دوما يتخلّف عنها في الطريق بسبب انشغاله بالنظر إلى كل ما تقع عليه عيناه...

وذات يوم مرّ الاثنان صدفة بسوق البركة وكان ذلك في شهر سبتمبر 1841 فوجدا منظرا مغايرا لتلك السوق التي تذكّرهما بوضعهما المزري، فقد لاحظا وجود فضوليين تجمهروا هناك لمشاهدة عمال يهدمون "الدُّكَانَات " التي كان يجلس عليها العبيد وكذلك المصطبة الكبيرة التي كان يعرض فوقها هؤلاء المساكين، فحتى المكان المخصّص "للقائد" والذي يسمى "القفص" قد أدركته معاول الهدم ولم يعد من سوق البركة سوى الاسم وتلك الأنقاض التي مازال غبارها يتصاعد إلى السقف.

لم تفهم فطوم هذا الصّنيع، وذهب في ظنّها أن العمال والبنائين قد فعلوا ما فعلوا بالسوق لتجديدها وتوسيعها، لكنها عندما سألت أحدهم أجابها أن المشير احمد باي قد أصدر أمرا بوقف بيع العبيد السّود نهائيا وبهدم السّوق حتى لا يعود بعضهم إلى تعاطي تلك التجارة الخاصة.

فرحت فطوم لهذا الخبر ونقلت فرحتها إلى مبروك، لكن هذا الأخير بقي صامتا واجما، ولما سألته عن سبب سكوته أجابها أن الأمر لم يعد يعنيه بتاتا،

فهو عبد وسيبقى كذلك إلى الممات بما أنه صار من زمرة العبيد منذ لحظة اختطافه وأن هدم سوق البركة لن يفرج عن كربته.

نظرت إليه فطوم شزرا وهي تتعجّب من صواب كلامه رغم صغر سنه فانفعلت لعدم مسايرته لها.

- قُلْتِ لكَ مِنْ قَبَلْ انك شيطان أَرْقَطْ.. اللهّ يحْسِنْ مِنّكْ العَاقْبَةْ.

وجذبته بعنف من يده لتعود به إلى الدار وقد فترت فرحتها بالخبر العظيم وهي التي كادت تطير لنقل البشرى إلى نساء سي مصطفى.

لمّا أمسى المساء، تعشّى سي مصطفى ثم نادى فطوما ومبروكا ليخبرهما بالقرار الذي يخصّهما بالدرجة الأولى، وكانت المفاجأة الكبرى بالنسبة إلى الوصيفين، فقد أعلمهما الرجل أنه قرَر عتقهما لوجه الله استئناسا بالقرار الذي أصدره الباي وأنهما أصبحا حرّين مثل بقية عباد الله، وأن عليهما الاختيار بين أمرين اثنين، إما البقاء في خدمته بمقابل، أو ترك الدار والذهاب إلى حيث شاءا.

بكت فطوم بكاء حارا وترجّت سيدها استبقاءها في الدار لأنها ترعرعت فيها وخدمت أهلها عشرات السنين وتعتبرها دارها وليس لها أيّ مكان آخر تنهي فيه بقية أيامها. أما مبروك فلم يظهر عليه لا تأثّر ولا فرح، فالأمر واضح بالنسبة له، فقد تعوّد على أهل الدار منذ اشهر ولا يعرف غيرهم ولن يفرّط في" أمّه" فطوم مهما كان الثمن حتى لو كان المقابل حرّيته، فسارع إلى فطوم معانقا واعدا إياها بالبقاء إلى جنبها.

كان الفرح عارما بالنسبة إلى كل الحاضرين رغم أنَ قرار سي مصطفى لن يغيّر شيئا من عوائد الدار، وسوف يبقى السيّد سيدا والعبد عبدا.

***

أصبح سي مصطفى يصطحب وصيفه إلى حانوته في "سوق اللَّفَةْ" ليقوم بقضاء بعض الحاجات الخفيفة أو لجلب الفطور. ومع الأيام استطاع مبروك أن يتأقلم بسرعة مع حياة السوق ومع ناسها حتى صار معروفا في ظرف وجيز، وأظهر ذكاء

فائقا في استيعاب ما يطلب منه سي مصطفى، وتعلّم أصول التجارة والصّنعة، وتفوّق على الكثير من صبيان السوق حتى أن بعض معارف سي مصطفى همسوا له بفكرة سرعان ما راقت له فقرر وضعها موضع التّنفيذ.

ـ مبروك هذا، لا يوجد مثله في السوق، فله، إلى جانب الذّكاء والفطنة والخفة، استعداد فطري لدخول معمعة التجارة وسوف ينجح فيها نجاحا يزيد في تنمية رزقك، ولهذا ننصحك باستبقائه إلى جانبك ثمّ افتح له الحانوت التي اشتريتها منذ سنة من عند الحاج بوبكر، وهكذا تتوسّع تجارتك دون أن يشاركك فيها أحد، وعلى كل حال هو عبدك وسوف يبقى كذلك أعتقته أم لم تعتقه ولن يغدر بك، ثم انك رجل وحداني لم تخلّف، فمن سيقف على حظوظ أرزاقك يوم تعجز ؟

لم تَرُق هذه الفكرة لنساء الدار وخصوصا لفطوم التي شعرت أن مبروكا سيبتعد عنها ولن يعينها على حمل أعباء الدار الكبيرة، كما أنه سيصبح من أهل السّوق، وسوف تتغير طباعه وسيفقد تلك الوداعة التي جاء بها. لكنها سرعان ما أقرّت أن ما سيفعله سي مصطفى هو عين الصّواب، فمبروك اصبح بمثابة ابنها ويسعدها أن تراه رجلا حرّا وناجحا، ومن يدري، ربما يصبح ذات يوم الوريث الشرعي لسي مصطفى، فالزمان له دوائر. ثم أن تلك "المَقْصُوفَةْ " زوجة سي مصطفى الثالثة، والتي يظهر أنها لن تكبر لا عقلا ولا تصرفا، والتي أكثرت من الدلال و التدلل وإلقاء الأوامر صباحا مساء، دون اعتبار لمن حولها، تلك المسّماة "منجية "، إنها هي التي تخيفها الآن على مصير مبروك وحتى على مصير أهل الدار، لأنها امرأة تتمتع بسلطة كاملة على قلب سي مصطفى، وكلمتها هي المسموعة، وحقيقتها هي اليقين بعينه حتى لو أوتي بالبرهان المخالف، ثم أن نظرتها إلى مبروك الوصيف لم تعجب فطوم أبدا لأنها وبكل بساطة قد حطت عينها على الوصيف من أول وهلة وهي نفسها التي تلصّصت عليها وهي تغسل لمبروك يوم دخوله الدّار لأول مرّة، لذا فالتحاق مبروك بالسوق أفضل بكثير من بقائه في الدار،فالشيطان حاضر دائما وهو لا يعترف بالعوائق.

***

مـــرت الأيام هادئة لم يحدث فيها ما يعكر صفو العائلة، ولم تظهر بوادر شـــك من شكوك فطوم، وكان الليل هو الذي يجمع كل أهل الدار، وكالعادة فبعد العشاء أخلد الكل إلى النوم وبقى مبروك ساهرا يقص على فطوم أحداث السوق ويشعرها بفرحه العارم بعمله الجديد ويصف لها المحل الذي اصبح شبه مسؤول عليه.

ارتاحت فطوم لمجرى الأحداث وحمدت الله على أن شكوكها كانت مجرّد أوهام سرعان ما تبخّرت.

***

ذات مساء، وإثر رفع موائد العشاء انزوى مبروك في ركن من الغرفة التي يتقاسمها مـــع فطوم وبقـــي صامتا واجما ينظر إلى ضوء المصبـــاح الخافت، دون أن يتكلم أو يحكي حكايات السوق، ثم سرعان ما سحب الغطاء على وجهه وتناوم.

لم تعر فطوم أدنى اهتمام لهذا التحوّل الفجئي ولم تلحظ ما يقلقها وحسبت أن التعب هو الذي فعل فعله بمبروك وتركه على تلك الحال.

لكن الحال دام أكثر من ليلة، وتواصل صمت مبروك ووجومه حتى أثار شكوك فطوم فقرّرت معرفة سر "ولدها".

دخلت عليه ذات ليلة بعد العشـــاء بقليل وفي يدها كأس شـــاي ناولته إياه ثم اقتربت منه وسألته بلهجة جافة :

ـ مبروك... آش بيك... مريض وإلا تاعب ؟

ولم يجبهـــا ولم ينظر إليها في أول الأمر، ثم ألقى عليها نظرة مبهمة فاقتربت منه بحنق وقالت له هامسة :

ـ أنـــت لَا مْرِيـــضْ وْلَا بِيكْ بْلَاء... أنت يا مبروك بَاشْ تِخْرِبْ عَلِينَا الدَّارْ... أنت تِلْعَبْ بالنار... بِعَيِّشْ وِلْدِي اِخْزِي الشيطان... وفُكْ عْلِيكْ...

ومرّت في رأس مبروك، وبســـرعة البرق، خيالات عدّة وهو يستمع إلى العجوز فطوم وهي تحدّثه بلهجة فيها الجد والاستعطاف، وقال لها مبتسما ومهدئا من روعها :

ـ ما تخافش يا فطوم... أنت ما تعرفي شي... اقعدي هَكَّةْ احسن.

وثارت ثائرة فطوم، وفهمت القصد والمعنى، فأمسكت بأذنه وجعلت تفركها بين أصابعها حتى تألمَ الوصيف وكاد يدفعها بقوة، وصاحت في وجهه :

ـ أنت تحب لِلَّاك "منجية" يا مقصوف الرّقبة... ومنجية هاذي نار... ما نْبَيِّتْهَاشْ بَحْذَا قَطُّوسْ.. وْيُظْهُر لِي الِّلي هِيَ زَادَةْ عِينْهَا عَلِيكْ... وخْزِيتْ عَلِيكُم الإثنين. اِسْمَعْ، مِـنْ هَا اللِّيلَة مَا عَادِشْ تْبَاتْ فِي بِيتِي ... غُـدْوَة اتْنَقَّلْ لِلْمَرْبِطَ مْتَاعْ الزّوَابِلْ وإلا لِلْمَخْزِنْ، وما عَادِشْ نْحِبْ نْشُوفْ وِجْهِك السِّحَاقِ...

وتركته في حيرة وخرجت مطبقة الباب وراءها.

***

سـاءت العلاقة بين فطوم ومبروك، وتطوّر الأمر حتى وصل إلى سـي مصطفى فحاول أن يفهم سـبب الجفوة الفجئية بين الوصيفين، لكنه لم يلق الجواب الشـافي فاضطـر إلى النزول عنـد رغبة فطوم الداعية إلى إبعاد مبروك عنها، لذا قرّر أن يفرد غرفة صغيرة لمبروك تقع في فناء الدار حذو المخزن الكبير. وبذلك ظنّ سي مصطفى أن الأمر قد حسم كما ظنّت فطوم أنها أبعدت الشرّ وتخلّصت منه.

لكـن منجيـة كان لها رأي آخر ونظرة أخرى للموضـوع، فهي التي كانت في الحقيقة وراء قرار زوجها، ووراء قرار فطوم بإبعاد مبروك عنها، وعرفت كيف تخطّط لهذا الأمر دون إثارة الشّـكوك، وبذلك ضربت عصفورين بحجر واحد. فقد أبعدت مـبروك عن رقابة فطوم وأبعدته بالتالي عن ضرَتيهـا، وجعلته في مكان قصيّ من الدار، بعيدا بعض الشيء عن العيون.

لقـد دغدغ الشـيطان منجية يوم رأت مبروك لأول مـرة، فعزمت على أمر لم تـتـثبّت كنهه من أول وهلة، وإنما داخلها شـعور مريب، فقد أحسّـت أن الوصيف ما هو في نهاية الأمر إلا رجل كبقية الرجال وليس عبدا، وشـعرت بإحسـاس المرأة الخفـي نحو الرجل،كما أيقنت أن هذا الأسـود لن يبقى عبدا طال الزمان أو قصر وسوف يعتق ويصبح حرّا سواء بمشيئة الأقدار أو بمشيئتها هي.

أما مبروك فقد بقي في بداية الأمر على سجيّته ولم يفهم لماذا تستلطفه منجية أكثر من الزوجتين مليكة ومحبوبة، فهي لا تفوّت فرصة لإظهار محبتها له خصوصا لما تكلفه بخدمة خصوصية، لذا لم يداخله شك أبدا في النوايا الخفية للمرأة واعتقد أن الأمر لا يعدو أن يكون شعورا محبّبا من سيدة لعبدها أو ربّما لأن الدار خالية من الصغار، ذلك أن سي مصطفى لم يرزق بولد رغم زيجاته الثلاث.

لكن الأمور تطوّرت رغما عن مبروك، فنظرات منجية له أصبحت ملحاحة وذات أبعاد أخافته وأربكته، لذلك طلب من سيده ذات يوم أن يستبقيه في السوق ليلا نهارا حتى لا يعود إلى الدار وبذلك يهرب ومن الوقوع في مكروه لا طاقة له بمواجهته، لكن سي مصطفى نهره عن هذه الفكرة متعلّلا بأن أهل الدار في حاجة أيضا لخدماته وأن حانوتي السوق لهما حارس ليلي إضافة إلى حارس السوق.

أحسّ مبروك أن لا مهرب له من إرادة منجية وأنهم دفعوه قسرا إلى ما لا
لكن مع مرور الأيام استهواه الانقياد إلى حركات المرأة ونظراتها، فبدأت مشاعر تتقاذف خيالاته، وانتقل شيئا فشيئا من الشعور بالعبودية إلى نوع من الإنعتاق كلما أحسّ بوقع يد سيدته على جسمه سواء كانت الحركة إرادية أو عفوية، وأخذت تلك الأشياء البسيطة تلحّ على عقله ليلا نهارا حتى أصبح لا يتكلم كثيرا، فطال صمته وعزف حتى عن الكلام مع فطوم، لكن العجوز استطاعت أن تنفذ إلى خبايا مشاعره رغم صمته ومحاولات إبعادها عن حقيقة تفكيره فانفجرت في وجهه في تلك الليلة، وصدعت بالحقيقة وطردته من غرفتها، وكان الطّرد بمثابة خلاص كان ينتظره، وبمثابة قرار أعتقه من حيرته، فسلّم أمره إلى الأقدار، وهو على يقين أنه مسيّر في كل شيء وغير مخيّر في أي شيء، وقد استوت عنده الخسارة بالربح.

لم تخف تلك الحركات عن فطوم فهي امرأة ذكية، حين يجب الذكاء، وبلهاء حين يجب إظهار البلاهة للتخلص من موقف محرج، فقد مرستها الحياة وأكسبتها تجربة، وهي مدركة أن قراءة نظرة امرأة لرجل لا تحتاج إلى علم ولا إلى ذكاء وفطنة، وهكذا لاحظت مع مرور الأيام ما كانت متخوّفة منه، فلعنت الشيطان ودعت في قرارة نفسها ألاّ يقع مكروه رغم أنها ترى بأم عينيها كيف بدأت الطبيعة تأخذ

مجراها بين مبروك ومنجية، طبيعة صامتة وصمتها كسكون البركان النّائم، والويل كلّ الويل يوم ينفجر.

***

تواترت الأيام فلا سي مصطفى ولا مليكة ولا محبوبة تفطنوا إلى شيء مما يخالج قلوب الثالوث الآخر، وبقيت الحياة بينهم عادية، فهم في الظاهر أسياد وخدم لا غير.

وذات ليلة انقلبت حياة مبروك رأسا على عقب.

كانت الليلة ممطرة مطرا شتويا شديدا أهجع كلّ أهل الدار إلى مخادعهم، وكانت منجية في قمّة وحدتها وخوفها من قصف الرعد ولعلعة البرق، فتكوّرت على نفسها في الفراش وقد داهمتها مشاعر جنونية أفقدتها هدوءها، فسي مصطفى هجرها منذ أكثر من أسبوع بسبب خلاف بسيط تطوّر فجأة إلى خصام استغلته كلُ من مليكة ومحبوبة لصالحهما، فأوغرتا صدر سي مصطفى على زوجته المدللة حتى نجحتا في إبعاده عنها ولو لحين ، ولم تدر منجية كيف لم تثر هذه المرة ثورة عارمة كالعادة، ولا لماذا سكتت عن تلك الإهانات، ولا لماذا استسلمت للأمرالواقع ؟ لكنها أحسّت أنها أصبحت مطوّقة أكثر من قبل بالأعداء ولم يبق لها في الدار سوى مبروك الوصيف الذي أخذ ينساق إليها بكثير من التحفّظ والخوف أحيانا.

داهمت خاطرها في تلك الليلة صورة مبروك وألح عليها حضوره وساءلت نفسها للمرّة الألف : هل يعقل هذا ؟ هل جننت ؟ أنا منجية المدللة صاحبة الحلّ والعقد في هذه الدار.. هل أعماني جنوني عن الرؤية العاقلة وعن التحسّب للطوارئ، هل يعقل، أنا البيضاء، أن يلمسني أسود ؟ ماذا جرى لي حتى أتخيّله في أوضاع لا يقبلها عقل عاقل؟

ثم ما المانع ؟ انه رجل وأنا امرأة وظلام الليل سيحجب عني كل هذه الموانع فلا أراه ولا يراني ويبقى بيننا ما يجب أن يطفئ ناري، وفي نهاية المطاف سوف يكون ذلك نكاية في سي مصطفى وشماتة في تلك السوداء فطوم وفي الحيّتين مليكة ومحبوبة.

فجأة أفزعها قصف الرّعد وأعادها إلى الواقع لكن لهيبا تأجّج في داخلها جعلها تنهض من فراشها وتتدثر برداء صوفي ثقيل ثم تسعى بكل خفة إلى باب الغرفة.

أطلّت من الباب فلم تر شيئا ولم تسمع إلا وقع المطر المتتالي وأسعفها ضوء البرق فأظهر لها أن السّكون تامّ في الغرف الأخرى وان الجميع نيام بما فيهم تلك الشمطاء فطوم.

قفزت في خفة القطة نحو الممر المؤدي إلى المخزن، وقد ساعدها خوفها وحرارة ما بداخلها على اجتياز بقع الماء قفزا.

طرقت باب مبروك طرقات مميّزة ثم دفعته فوجدته غير موصد... وكان الوصيف قد غفا بعض الشيء،فلم يسمع الطّرق وحسب أن الرعد هو الذي آفاقه لكنه أحسّ بوجود شخص واقف غير بعيد عنه فقفز قلبه إلى حلقه وكاد يدفن رأسه في الغطاء فقد اعتقد لوهلة أن فطوم هي التي جاءته لأمر طارئ، لكن الشّبح سرعان ما انكبّ عليه آمرا إياه بالصمت وعدم إحداث حركة.

فهم مبروك...وعندما فهم انقلبت موازين الدنيا في رأسه ولم يبق في عقله مكان للتفكير، فقد داهمته مشاعر حامية خالها جيش من نمل اجتاح مجامع جسده ولم يترك بقعة من كيانه إلا وأحدث فيها ذلك الإحساس الهادر الذي انتابه لأول مرة في حياته، وشعر أن سيدته منجية قد سطت عليه سطوة جامحة...

إنها مجنونة. ماذا أصابها هكذا فجأة وفي هذه الليلة الليلاء ؟...

وحضر الشيطان بينهما، وزادهما قصف الرعد والأحاسيس بالنهم جنونا على جنون ولم يشعرا بمضي الوقت ولا بتوقف المطر عن النزول، وكادت تستسلم منجية إلى متعة الراحة بعد الإجهاد لولا تفطنها فجأة لهذا الموقع المتواضع جدا الذي جاءت إليه فنفرت من الفراش تاركة مبروك في دهشة، وسرعان ما تدثرت وخرجت دون أن تنبس بكلمة.

وصلت إلى غرفتها ونزعت عن جسدها الغطاء الثقيل وقد أحسّت بحرارة صيفية تدبّ في كامل كيانها فارتمت على الفراش لتواصل الاستمتاع

بالإحساس الذي مازال يدغدغها وابتسمت في الظلام ابتسامة واسعة عبّرت بها عن أشياء لا تعرفها إلاّ هي.

لم تكن هي الوحيدة التي ابتسمت في تلك اللحظة، فقد ارتسمت ابتسامة أخرى على ملامح وجه كان يطل من نافذة غرفة أخرى، وجه أسهده هو الآخر قصف الرعد وتهاطل المطر وقلق من النوع الذي أصاب منجية منذ ساعة.

انسدلت أخيرا ستارة النافذة وذهبت التي كانت واقفة وراءها إلى فراشها وارتمت عليه وسحبت الغطاء الصوفي على جسدها البارد وأغمضت عينيها بشيء من السعادة بعدما توصلت إلى قرار هام.

ونام ليلتها كل من في الدار كأنّ شيئا لم يقع.

تواصلت العلاقة السرّية بين مبروك الوصيف ومنجية دون أن يتفطّن إليها أحد سوى محبوبة الزوجة الثانية لسي مصطفى، وكان ذلك منذ الليلة الأولى لمغامرة منجية، ولم تتكلم المرأة ولم تبح بالسّر الخطير لأيّ أحد وبقيت صامتة صمتا محيّرا خصوصا وهي امرأة ثرثارة لا تقدر أبدا على السكوت عن أمر يهدُّ الجبال. ولم تحاول حتى الهمز أو اللمز لضرتها التي ارتكبت خطيئة عظمى في حق زوجها، وفي حق الدار، وفي حق الأخلاق، وتمادت العلاقة بينهما عادية وربما تبدّلت بعض الشيء لأن فطوم لاحظت بكل تعجّب كيف أصبحت الضّرتان تعاملان بعضهما معاملة فيها الكثير من اللّطف والحذر، على عكس ما كان بينهما من قبل من نفور وخصام على أبسط الأشياء.

***

مرّت سنتان على وجود مبروك في دار سي مصطفى، وكان الوئام قائما بين الجميع حتى أن فطوم نسيت الموضوع الذي كان يشغلها ويخيفها وغفرت لمبروك ميله لسيدته منجية معتقدة أن الموضوع قد انتهى ولم يعد هناك ما يعكّر صفو العائلة.

كبرت تجارة سي مصطفى وأصبح الحانوت الثاني الذي يقف عليه مبروك في شهرة الوصيف الذي تعلّم أصول التجارة ونافس حتى مولاه سي مصطفى. ومع

ذلك لم يقرّر هذا الأخير متى سيعتق عبده عتقا حقيقيا ويعتبره حرّا طليقا، لكن هذا الأمر لم يشغل بال مبروك بما أنه يعيش سعادة تامة في السوق حيث أصبح من أهله وكذلك في دار سي مصطفى حيث ينعم بكل ما طاب من لذائذ الحياة، ولم يعد يشغل باله ذلك الشعور بالخزي بفضل منجية التي مسحت من باله هذه الفكرة السخيفة وأفهمته مرارا أن سي مصطفى لم يعد يهتمّ بها كثيرا، وأنه لم يعد في حاجة إليها، وأن له زوجتين وهذا كثير على رجل مثله. واقتنع مبروك بالكلام، كما اقتنع بأنّ ما حصل بين يديه ما هو إلا نعمة من نعم الله عليه لم يسع إليها ولم يطلبها، ثم إنه عبد مأمور لا يمكنه أن يرفض طلبا لأسياده مهما كانت غرابته وخروجه حتى عن المألوف.

***

ذات يوم وقع حدث كبير في عائلة سي مصطفى. حدث قلب الموازين رأسا على عقب وجعل أهل الدار يعيشون في فرح عارم، فقد منّ الله على سي مصطفي بالخلفة وها هي محبوبة حامل. محبوبة التي لم يكن أحد يعرها كبير الاهتمام. محبوبة الكسولة الخاملة التي لا تتميز عن ضرتيها إلا ببياض جلدتها بياضا صارخا وبخضرة عينيها فقط. محبوبة أصبحت اليوم محطّ الأنظار والاهتمام.. فتبخَترت الغيرة التي كانت بين النساء الثلاث واستعددن كلهن للعيش على وقع الحدث الهام الذي طالما انتظرته الدار انتظارا شارف به الطول إلى عتبات اليأس، وطار سي مصطفى سعادة وأصبح يرفرف بها على الجميع، فقد غمر أهل السوق بهدايا البشرى، واشترى لمبروك كسوة جديدة، أما مليكة زوجته الأولى فقد اشترى لها ما طلبت من قماش وخواتم، واشترى لمنجية خلخالا، ولم يبخل على فطوم، فقد أهداها قرطا ذهبيا كان لها فاتحة للتحلي بالذهب مثل الأسياد.

واكب الجميع بسعادة مرور أشهر الحمل، واستغلّت منجية في الأثناء انشغال أهل الدار بالحدث الكبير فأطلقت لشهواتها العنان وتمادت في استغلال فحولة مبروك استغلالا كاد يقرفه، لذلك قرّر الهروب من الدار ومن جوع منجية المزمن الذي سيؤول حتما إلى الفضيحة الكبرى لو تفطن أحدهم إلى العلاقة الآثمة التي تحولت مع الأيام إلى عادة وحقّ مكتسب تطالب به منجية كلّ ليلة تقريبا، منجية التي

استطاعت بكل الحيل الشيطانية أن تحافظ على سرّية حياتها الليلية مع عشيقها مبروك، ولم يكن على علم بها سوى محبوبة التي حافظت على السّر الكبير بكل أمانة وتمادت في تجاهلها لكل ما حدث ويحدث.

لهذا فاتح مبروك سيده للمرّة المائة في موضوع انتقاله كليا إلى الحانوت حتى يشعر حقيقة بالحرية ويتبدل وضعه من عبد إلى تاجر. ولم يقبل سي مصطفى إلا عندما اهتدى الخادم إلى طريقة مؤثرة أوصلته إلى مبتغاه.

ـ سيدي مصطفى... بْجَاهْ رَبِّي... بْرَاسْ سيدي الصغير.. بِنْعَمْ سيدي الصغير... إنه ذكر، يا سيدي مصطفى... بْرَاسُو خَلِّينِي نُقْعُدْ في الحانوت...

استساغ سي مصطفى الفأل الحسن ووافق على الطلب وأعدّ أسباب الراحة لخادمه. ومن يومها استقل مبروك استقلالا تاما عن أهل الدار ولم يعد يذهب إليها إلا عندما يدعوه سي مصطفى في بعض الأحيان للعشاء. وثارت ثائرة منجية وأرغت وأزبدت وتوعّدت مبروك بأكبر الوعيد وكان ذلك أثناء الليلة الوحيدة التي قضاها في الدار، كما ترجّت سي مصطفى ترك الوصيف يعين فطوم المسكينة التي ثقل حملها بسبب تدلل الحامل تدللا أرهق الجميع خصوصا في الأشهر الأخيرة. ولم يسمع سي مصطفى رجاء زوجته ولا رجاء فطوم، ولم يهتمّ مبروك بوعيد سيدته واكتفى بقول أسكتها : "سيدي مصطفى قال لي :

ـ أنت مبروك وَلِّيتْ رَاجِلْ وْمُوشْ بَاهِي تُقْعُدْ مع النساء... أنت وصيف سِمْحْ.. فْهِمْتْ وإلا لا ؟.

***

جاء اليوم الموعود، يوم مخاض محبوبة، واستعد أهل الدار لاستقبال المولود الذي سينير الدار وسيكون سيدها بلا منازع، وجاءت القابلة للاّ محرزية، أشهر قابلة في الحاضرة، ومعها مساعدتها، ودبّت في الدار حركة قصوى لاستقبال الحدث العظيم، وأعدّت الحلويات والمشروبات، واشترى سي مصطفى هدية غالية تركها مفاجأة لأم المولود.

طال المخاض وتعسّر على الحامل وعلى الجميع، حتى أن سي مصطفى فضّل البقاء في سقيفة الدار وهو لا يكاد يستقر في موضع واحد، فقد هزّه الانتظار،

وتحلقت منجية ومليكة تساعدان ضرتهما المتعسرة. وتحركت فطوم في كل اتجاه رغم إحساسها الخفي بأن غيمة ما ستعتم إشراقة الفرح.

وأخيرا سمع صراخ المولود الجديد وبكاؤه المميّز..

قفز قلب سي مصطفى وجلا ثم أشرقت أساريره بالفرحة الطاغية، وفي لحظات تخيل كل شـــي، وبنى من قصور الأحلام ما يعمّر مدينة كاملة، وحاول أن يهرع إلى غرفـــة محبوبة لكنه لم يفعل لأن القابلـــة مازالت هناك، وأنه لم يتلقّ بعد الخبر الصحيح من إحدى النساء.

ساد الصّمت فجأة، وسكت كل من في الدار ويقي صراخ المولود هو القائم فيها، فتحير سي مصطفى وخاف على حياة محبوبة فنادى فطوم، ونادى مليكة، ومنجية لكن لا حياة لمن تنادي.

وأخيرا خرجت القابلة في صمت تتبعها مساعدتها ...

***

لا.. لم تخرجا.. بل تســـللتا مســـرعتين إلى باب الدار دون أن تعيرا اهتماما لحيرة ســـي مصطفى الذي راح يتخيل أعظم المصائب، ورأى مليكة تتســـلل هي الأخرى نحو غرفتها وتبعتها منجية، ولم تظهر فطوم.. وكاد المســـكين يقع أرضا... فقد تخيل موت محبوبة وموت المولود. لكن المولود مازال يصرخ ؟. إذن ماذا حدث. ماذا حدث يا جماعة ؟...

وانطلق بسؤاله نحو غرفة الولادة وهو في أقصى حالات التشنّج، ولم يتبيّن شيئا في أول الأمـــر، ورأى محبوبـــة تبكي، ثم حوّل بصـــره إلى موضع الوليد فرآه يتحرك ويصرخ... ومرّت على عيني ســـي مصطفى غشـــاوة ســـرعان ما تحولت إلى ظلام.. ودارت الدنيا بسرعة جنونية، ولم يقاوم سي مصطفى ذلك الدوران فقد أحسّ بألم حادّ يعصره عصرا ثم بهاوية تبتلعه.

سقط سي مصطفى دون حراك ، فقد مات لحظة وقوع بصره على المولود الجديد.

كان المولـــود ذكرا... لكنه وصيف... وعوض أن تنطلق الزغاريد، علا الصّياح في أرجاء الدار الكبيرة، وكانت المصيبة عظمى على كل من سمع بالخبر، ولم تســتطع فطوم أن تتحمّل هذه الكارثة التي أحسّت بها قبل أن تحدث، فضربت بيدها على صدرها تعبيرا عن هول الحدث.. فقد كانت تتوقع أن تأتي المصيبة من منجية لا من هذه المائعة، فإذا بالأمور تنقلب رأسا على عقب ؟

وخرجـــت من الدار لتبحث عن مبروك الوصيف... مبروك النّحس... وذهبت إلى السوق فلم تعثر له على أثر، فباب الحانوت موصد ولا أحد يعلم بمكان العبد الذي اختفى فجأة تاركا وراءه الحيرة ولعنات الناس.

ذاب مـــبروك كالملحـــة... بحثوا عنه في كل مكان. أخبروا حتى شـــيخ المدينة بما حدث حتى يرسل في البحث عن ذلك الخائن... لكن لا أثر ولا خبر.

بعـــد ثلاثة أيام... فاحت في ســـوق اللّفة رائحة كريهـــة... رائحة موت آتية من حانوت سي مصطفى.. فحضرت الطامة والعامة وكُسِرَ باب المخزن فاكتشف الرجال ساقين متدليتين، ورأوا مبروك الوصيف مشنوقا إلى عارضة السّقف الخشبية.

***

شنق مبروك الوصيف نفسه بعدما أيقن أن الفضيحة آتية، وأن الموت أفضل من عقاب ســـيد خانه مرتين : الأولى في زوجته منجية، والثانية في زوجته محبوبة التي هددته ذات ليلة بنشر الفضيحة إن لم يفعل معها ما اعتاد فعله مع منجية، وطالبته بحفظ السّر وإلاّ كان مصيره الموت المحقّق...

لذلك قرّر مبروك الوصيف يوم ولد ابنه الذي يشبهه خلقة ولونا، أن يضع حدًّا لحياته، فعتق نفسه من العبودية... ومن عبودية ما حدث.

"الورقـــة الحـــرام"

جئت من قريتي الصّغيرة الواقعة في خلاء بين الوسط التونسي وجنوبه. جئت إلى العاصمة منذ قرابة خمسين سنة مفلسا معدما ليس لي من متاع الدنيا سوى كسائي المقتصر على ما يســتر جسمي، ولم يرافقني في ســفري الطويل مشيا على الأقدام سوى أمل كبير في تبدل حياتي من الفقر إلى شيء من سعة الحياة... لا غير.

اكتشــفت من أول يوم وصلت فيه إلى المدينة أن الفرق بين الأمل والواقع كبير كبر هذه الدنيا، وإنّي سوف أعيش حياة ضنك وقتامة ولن أصل أبدا إلى ما حلمت ببعضه.

بدأت أشــقى في إيجاد لقمة تسدّ الرّمق، وطوّح بي ذلك إلى التّسكع الطويل في أزقّة المدينة بحثا عن عمل مهما كان نوعه، وطرقت الأبواب فسمعت ما أحبّ وما أكره، وعرفت ما معنى الاحتقار ومذلّة الطّلب، وتمادى التسكّع المضني الذي أفادني في الحقيقة، إفادة كبيرة، فقد تعرّفت على المدينة العتيقة وعلى كل أنهجها وأزقتها، وحتــى على المدينة الأوروبية خارج باب البحــر وكذلك حارات اليهود والطليان والفرنســيس، وأصبحت كأني ساعي بريد، مع فرق بسيط، وهو أنه يوزع الرسائل، وأنا أوزع جهدي ووقتي على بلاط الأنهج دون مقابل ودون نتيجة.

وذات يوم قادتني الصّدفة، أو الجوع، أو الحاجة... لم أعد أتذكر، المهمّ أني وجدت نفسي في نهج ضيّق، لا اذكر اسمه رغم ترددي عليه عشرات المرات... نهج، إخلاقيا

ما كنت أريد لنفسي ارتياده، ولكن فضوليا... نعم، فقد تباطأت، ثم وقفت أمام باب كبير نصف مفتوح يدخل ويخرج منه أصناف من الرجال، وعلى وجوههم علامات اختلطت فيها دلالات الهمّ والقلق والسّرور والغبطة والشقاوة والخوف والحذر... كل ذلك لاحظته رغم بساطة فكري وانعدام ثقافتي.

ســاءلت نفسي : مادام هناك رجال يدخلون ويخرجون فلماذا لا ادخل واعرف ماذا يحدث في هذه الدار ؟ وبعد طول ملاحظة وكثير من التردّد، دخلت... ومن أول خطوة شعرت بالرهبة... نعم رهبة شديدة أو خوف، أولا أدري بالضبط ما نوع ذلك الشّعور، ووجدت نفسي وسط دار كبيرة، صحنها مغطى بسقف بلوري لكنه معتّم بعض الشــيء، وقد غلب على المكان اللّون القاتم والأحمــر الدّاكن، وتناثرت هنا وهناك بعض الأرائك والكراســي قرب أبواب مغلقة جلس حذوها رجال يدخّنون وقــد وضعــوا قبعاتهم جانبا أو امســكوا بأطرافها وتشــاغلوا بتدويرها أو بتمرير أصابعهم على أطرافها لإخفاء ما اعتراهم من عصبية أو من رهبة أو من نفاد صبر.

لأول مرة في حياتي رأيت امرأة شــبه عارية، وأحسست أنا عوضا عنها بالخجل وبالارتباك وكأني أنا العاري، لا هي.

ارتبكت حواسي وحاولت تفادي المنظر المثير، لكن بصري كان أعتى من إرادتي. وخرجــت امرأة أخرى...وأخــرى... وأخرى... ودخل رجل مــع أخرى وخرج آخر ليدخل آخر... وأنا واقف مثل إحدى سواري الدار وقد ضاع بي الخيال في متاهات لا حدود لها حتى أفقت فجأة على صوت خشــن وقع على مســمعي مثل وقوع سوط على ظهر حصان.

ـ هِيهْ... إِنْتِ أَرْبِي... اِيجَه هُونِي...

والتفت إلى هناك، فإذا بي وجها لوجه مع امرأة عظيمة الجســم جلســت وراء منضدة وقد كســت وجهها وشــعرها أصباغ حوّلتها من امرأة عادية إلى ما يشــبه "عروسة الشــوالق" والتصقت بشفتيها الغليظتين سيجارة تنخفض وترتفع حسب الهمهمــة التي تصدر من فمها وهــي تتحدّث إلى رجلين أوروبيين دفعا لها مالا ثم دلفا إلى باب اغلق وراءهما بشيء من العنف.

- هيه، إِنْتِ إِنْكَلِّمْ فِيكْ إِنْتِ... أَرْبِي... إِيجَه هُونِي...

تملّكني الفزع عندما أدركت أن دخولي إلى هذا المحل كان مغامرة اعتباطية لكوني في أوضع حالة من الإفلاس، وبدأت أتراجع خطوات وعيني مترددة بين تلك المرأة والباب، وشعرت بالعيون تتوقف على حالي المزري رغم أن الله قد متّعني بالصّحة والعافية وبالطول والعرض وحتى بالوسامة أيضا... لكن لعن الله الفقر... فلو كان لي لباس أنيق لبززت كل هؤلاء الرجال الذين كانوا ينظرون إليّ وكأنهم ينظرون إلى حيوان قادم من الأدغال.

لا أدري كيف تحوّل بصري عفوا إلى الطابق الأول حيث أبواب أخرى وسياج خشبي مزركش، ورأيتها... رأيتها كأني رأيت شخصا أعرفه من زمان،ولاحظت الابتسامة المرتسمة على شفتيها وعلى وجهها الذي بدا لي لحظتها أنه لم يعرف أبدا معنى الألم والحنق، أو الانفعال أو البكاء... وجه ضحوك وكفى، ودون أن تتكلم أشارت إلى تلك المرأة المقرفة إشارة خاصة ثم لوّحت لي بيدها... أن أطلع...

تعاظم ارتباكي وغوصي في وضعية لا حدود لمهزلتها، فأنا غير مستعدّ لمثل هذا، وما جئت إلى هنا إلا صدفة، فكيف العمل وأنا كما أسلفت... الحال حال الله.

لا أدري كيف ثارت في نفسي عوامل الرّجولة والشّجاعة فانقلبت فجأة من حالة الخوف والارتباك إلى حالة "الدّيكة" وعقدت العزم على مواجهة كل هؤلاء وخصوصا تلك العجوز المتبرّجة.

صعدت وقلبي يدقّ بعنف وطقطقة السلم الخشبي تحت قدميَ تزيد في ارتباكي وفي عصبيّتي.

استقبلتني تلك المرأة بابتسامة عريضة والتصقت بي قليلا كأنها قطّة تستدرّ عطفا، وشعرت بنار تلتهمني لكن سرعان ما همدت ليحل محلها شعور غريب مازالت آثاره تدغدغني إلى اليوم.

انغلق الباب وراءنا، ولا ادري لماذا شعرت لحظتها برهبة مبهمة كأني أدخل زاوية وليّ صالح، وكدت أعود على أعقابي، لكن المرأة أنقذتني من تلاطم أحوالي

بإشارة مشجعة فنظرت إليها وقد استبلهت نفسي وأنا أتساءل عن سبب وجود هذا الجمال والكمال في هذا المكان الموبوء ؟

خرجت من تلك الغرفة بعد وقت لم أقســه لا بالطول ولا بالقِصَرِ وقد علقت بذهني أدقّ تفاصيل تلك الجلسة الغريبة... خرجت كما دخلت.. لم أفعل شيئا ولم أسمح بأن يُفعل بي شيء...

خرجــت وفي جيبي... ورقة نقدية ذات قيمة كبيرة جدا في ذلك الوقت. وعرفت أن صاحبتي مالطية.

لقد أعطتني المال بعدما قصصت عليها قصتي البسيطة، لكني رفضته في البداية رفضا قاطعا، ولما ألحّت عليّ إلحاحا حانقا أخذته عن مضض.

أنــا... أنا آخذ مالا حراما ؟.. و مــن امرأة مومس لا أعرفها ولا تعرفني. لماذا ؟... وكان من المفروض أن أدفع أنا، لا هي.. أخذت الورقة الغالية بعدما اشــترطت على المرأة شرطا رجاليا :

ـ سوف أقبل بالمال في شكل سلفة... أرجعها لك متى توفّر لي الرّزق.

وخرجت من تلك الدار وأنا أتحسَّــس الورقة "الحرام" التي دســتها في جيبي المخروم وقد مسكت بها بطرف إصبعين... تقزّزا.. وخوفا من أن تضيع مني.

***

بعــد يومين اشــتريت بتلــك الورقــة "برويطة"* وكمّيــة من الغلال وأصبحت أبيع الفواكه في أنهج المدينة حتى صار لي دخل محترم.. فخرجت مــن الفقــر المدقع إلى الكفاف، لكني دخلت دوامة أخرى أخطر بكثير مما كنت أعيشه أيام التشرد والحرمان، لقد أصبت بداء العشق... نعم وقعت في حبها... وقعت يا ســيدي في غرام "مومســتي". وقعت أنا، ابن البادية وابن التقاليد الصارمة والعادات التي لا ترحم، فماذا ســأفعل ؟ وكيف سأواجه النــاس وكلامهــم ؟ وعميت عن كل ذلك.. فلم يعد يهمّني شــيء مادام كياني قد عمر بالحب.

أصبحت أتردّد على "حبيبتي" وحاولت مرارا أن أُرجع لها "ورقة" الدين، لكنها كانت ترفض رفضا قاطعا ثم تغمرني بحنان يزيدني ضياعا في حبها ويأسرني إليها فكرا وجسدا... حتى أنني قرّرت في لحظة صفاء أن أخرجها من هناك... وأن أتزوجها وليكن ما يكون.. فأنا غريب في هذه المدينة ولا روابط تمنعني عما أردت.

فاتحتها بهذا القرار "المفاجأة" وكنت أحسب أنها ستفرح فرحا عارما... لكنها صمتت وابتسمت ابتسامة غامضة وقالت لي وهي تطبع على جبيني قبلة خاطفة :

ـ لن أخرج من هنا إلا إلى دار تسترني وتنسيني كلّ الماضي، فإذا قبلت بهذا الشّرط فأنا معك... ولكي أعرف أنك جادّ في مسعاك... لا تعد إلى هنا إلا لتخبرني بأنك اشتريت دارا ونجحت في عملك، أما إذا عدت قبل ذلك فإني أعرف ساعتها أنك لا تريدني زوجة لك.

خرجت من عندها بعدما دسّت في جيبي ودون علمي مجموعة من الأوراق المالية، ولما اختليت إلى نفسي عددت ذلك المال فإذا به ثروة تغنيني فعلا لو عرفت كيف أتصرف.

تمكّنت في مدة وجيزة من تنمية تجارتي واختصصت في بيع الخضر والغلال والسمسرة فتوسع رزقي وأثمر مالي فتحقق لي شراء دار وحانوت.

لم تخمد نار حبّي ولم أتراجع عن قراري رغم وضعي الجديد والنعمة التي أصبحت عليها، ولم أفكر أبدا في امرأة أخرى ولم تسكن فؤادي سوى تلك المالطية.

وذهبت إليها ذات يوم بعدما رتّبت أمري وفي نيّتي إخراجها من هناك.

وكانت الصّدمة الكبرى، فقد أخبرتني تلك العجوز المقرفة أن صاحبتي المالطية قد رحلت فجأة. نعم رحلت.. لقد عادت إلى مالطا دون أن تترك عنوانا ولا حتى ذكر سبب عودتها إلى بلدها.

لم أفهم.. لم أفهم لماذا فعلت هكذا.. لقد بهتّ ومن شدة بهتتي أحسست لحظتها أن ركنا من صرح ذاتي قد هوى.

عــدت خائبا.. مهدودا... وبقيت انتظر عودتها ســنوات وإلى اليوم، صدّقني... إلى اليوم، حتى أثاث الدار مازال قائما يشــهد على انتظاري لها.. وهذا الحانوت الذي أجلس أمامه يوميا هو مكان انتظاري... فهل مازال يا ترى يوجد حب مثل حبي في هذا الزمن المجنون ؟ ولا أدري حقيقة من منا المجنون أنا أم الوقت.

ســكت الرجل الذي رشــق على أذنه مشموم فلّ وتشــاغل عنّي برهة بشذب بعض الأزهار من حبقة كبيرة قرّبها منه ومرّر عليها مجمع يديه في حركة رشيقة كأنه يلامس خيال جســد، ثم رفع يديه إلى أنفه واستنشــق بعمق شاعري ما علق بهما من رائحة الحبقة.

بروبطـــة : عربة كان يســتعملها البقالون المتجولون لعرض سلعهــــم من خضــر وغـــلال وهم يتغنــــون بمعروضاتهم الموسمية.

المُحَيَّطُ

- تْحِبِّشْ تِخْدِمْ عْلَى رُوحِكْ ؟

كاد يقفز من الفرحة ومن المفاجأة في آن واحد... فقد فوجئ بهذا السؤال بعدما أيقن أن الأقدار نسيته ولم تعتبره من عداد الأحياء وأنه سوف يموت جوعا بعد ثلاثة أيام من الصوم القسري... والتفت بكل قواه الواهنة إلى الرجل الواقف إلى جنبه معتقدا أن هذا الغريب ما سأل هذا السؤال إلا مازحا.

- آش بيك باهت... قُتْلِكْ تْحِبِّشْ تِخْدِمْ عْلَى رُوحِكْ...؟

ومن فرط الفرحة لم يستطع النطق، فأومأ برأسه إيماءة وضع فيها كل مهجته وترجم بها عن كامل موافقته وكبر فرحته...

تبع الرجل الغريب بضع خطوات حتى أشار عليه بالركوب وراءه في عربة فاحت منها رائحة نتنة.

لم يعر اهتماما لا إلى رائحة العربة الثقيلة ولا إلى الأقذار العالقة بها ولا إلى البغل الهزيل الذي ينوء بحمله الفارغ، بل نظر إلى قرص الشمس الكبير المائل نحو المغيب كأنه يراه أول مرة، وبقي يتبعه ببصره وهو يغوص شيئا فشيئا وراء الهضاب حتى غاب تماما وحلّ محلّه ظلام خفيف، وهنا التفت إلى الطريق فرآها مازالت مستقيمة لا نهاية لها، وتكَلَم أخيرا سائلا الرجل :

ـ آشْ نِيَّةْ الخِدْمَةْ الّلي بَاشْ نِخْدِمْهَا ؟

ـ زَبَّالْ...

لم يجب، ولم تصفعه هذه الإجابة المقتضبة، بل هزّ كتفيه قليلا وابتسم ابتسامة كئيبة وظل بعد ذلك صامتا ينظر إلى ما حوله بعدما نزل ظلام الصيف وبقي صوت عجلات العربة يطقطق على الطريق بإيقاع رتيب.

لاح له من بعيد ضوء باهت، لا بل أضواء كثيرة، واعتقد أنه سيصل إلى قرية أو إلى دوار كبير، لكن الرجل طمأنه :

ـ هَاذِيكَةْ باردو... اِحْنَا تَوَّا مَاشِينْ للسْرَايَا مْتَاعْ باردو...

لم يسمع من قبل بهذا الاسم، وهو لا يكاد يعرف من مدينة تونس إلا رقعة صغيرة تنحصر في حومة باب سعدون فقط... أمّا باردو هذه، و... سراياها ؟... فلا.

وقفز إلى رأسه سؤال نبّه حواسه واستنفرها فأطلق لسانه :

ـ سرايا باردو ؟ علاش ؟

ـ بَاشْ نْهِزُّو الزِّبْلَةْ كِيفْ كُل لِيلَةْ.

وانطلق الرجل في تفسيرات عدّة، منها أن الصَبي الذي اعتاد مرافقته ليعينه في العمل، قد ابتسم له الحظ فجأة عندما رآه ناظر القصر فألحقه البارحة بمخزن المونة. وهكذا أصبح الصَبي أحسن حالا من مخدومه.

سكت الرجل وترك مرافقه يحلّق في أجواء لم يطلها خياله من قبل، حتى انه تخيل نفسه في وضع ذلك الصبي... وأمامه أولا وقبل كل شيء مائدة عليها ما لذ وطاب من نعمة ربي، ثم وهو شبعان متكئ على وسادة كبيرة ومفترش جلد ضأن منفوش ويلبس جلبابا منه كساء ومنه غطاء.

ـ أَهْبَطْ... وصلنا.

عاد إليه الوعي. فهبط من عالم أحلامه ثم هبط من العربة، فأحسّ لأول مرة أنها قذرة فعلا وأنها لم تستعمل إلا لرفع الزبالة لا غير، وتبع الرجل حتى وصلا إلى الفناء الخلفي للقصر.

ـ آقِف غَادِي... مَا تُدْخُلْشْ... تَوا أَنَا نْمِدّلِكْ بِالْقَصْدْرِيَّةْ بِالْقَصْدْرِيَّةْ وأنت تْفَرّغْهُمْ فِي الْكَرّيطَةْ... آش سَمَّاكْ رَبِّي ؟

ـ عبد الله.

ـ الناس الكل عباد الله... أمك آش سَمَّاتِكْ.

ـ خْمَيِّسْ...

ـ سمعت آش قُلْتِلِكْ يا خميّس ؟

وحرَك رأسه بالإيجاب، وبقي متسمرا في مكانه لا يدري هل أن وقفته أمام هذه البناية هي لآخر مرة أم أن الأيام ستكررها. وأخرج الرجل "القصدرية" الثانية، وعندما جاء دور"القصدرية" الثالثة خرج أحد الخدم عوض الرجل واتجه نحو خميس ونظر إليه على ضوء القنديل ثم سدّ أنفه متأففا من الرائحة الكريهة ونطق كأنه يتخلص من بصقة.

ـ عندك بَخْتْ يْكَسّرْ الْحْجَرْ... وَحْدَةْ مِنْ النْسَا: وِلْدِتْ وْجَابِتْ وْلَدْ... والعشاء الليلة للناس الكل، قالك سيدك أدخل.

ولم يفهم خميّس، ولم يتحرك، ولم يفرح لهذا الخبر، وحسب أن الأمر لا يعنيه، فاعتقد الخادم أنه إما أن يكون أخرس أو أطرش فقفل راجعا، لكن خميّس تبعه بصمت، فما كان من الخادم إلا أن عاد والتفت إليه ناهرا:

ـ موش من هنا يا بغل... من غادي... من مربط الزّوَابِلْ... اِمْشِ... منظرك مْنَاعْ بهايم موش متاع بشر.

وانكسر خاطر خميس... ولم ينكسر قوامه الفارع، ولم يتحرك عقله كثيرا فقد كانت أمعاؤه هي الممسكة بزمام أمره تجره إلى حيث أشار الخادم.

دخل متعثرا من باب المربض الكبير فوجد نفسه في مكان وطيء، كاد سقفه يصدم رأسه لولا تفاديه لقنديل معلّق انتبه إليه في آخر لحظة. وأدار بصره في أرجاء المكان، فلم ير إلا أشكالا مثله قد انهمكوا بكل حواسهم في التهام ما تقع عليه

أيديهم من مآكل في قصعات كبيرة، ولم ير مكانا خاليا حول الأواني التي بدأت تفرغ بسرعة، ولم يدر ما يفعل، هل ينزل مغيرا على أحدهم ويدفعه جانبا ليأخذ مكانه، أو ينتظر دوره حتى يلحسوا كل القصعات ويعود إلى الكريطة النَتنة كما جاء ؟

اتكأ على الجدار خائر القوى، جوعانا، خائبا، ورائحة الأكل تستفزه في كل لحظة وتثير فيه عدوانية بشعة.

- آش بيك واقف... إيجه من هُونِي...

والتفت ناحية الصوت، وانقاد إلى مناديه وقد نسي للحظة جوعه المزمن فانشغل بالسؤال الجديد.

- إِمْرَا هَذَا وِإِلَّا رَاجِلْ...؟

لم يفهم خميس وهو يسائل نفسه عن جنس هذا الشخص الذي انتشله من حيرته ودعاه ليتبعه، فلا هو رجل كما اعتاد أن يرى الرجال، ولا هو امرأة كما رأى بعض نساء الحاضرة من خلال فجوات الأبواب التي فتحتها في وجهه بعض الظروف الاستثنائية.

كان الرواق طويلا هذه المرة، فخما ومضاء بقناديل حسنة الصنع غريبة الأشكال، وكانت الروائح آتية من حيث لا يدري، روائح أكل، وعطر، وغيرها، لم تدخل مناخيره من قبل.

- نْحِبِّكْ تِتْعَشَّى مْعَايَا اللِّيلَةْ.

التفت إليه هذا الغريب في المنظر والشكل وحتى في طريقة الكلام، وابتسم له ابتسامة عريضة وهو يعلمه بهذا الخبر السعيد. وتساءل خميس : ترى هل يكون هذا، أحد أبناء الأمراء ؟... فإن كان الأمر كذلك، فإنه مولود حقًا ليلة القدر، وإن أبواب العرش قد فتحت في وجهه تماما مثل الصبي معاون الزبال الذي سبقه.

- تْفَضِّلْ... مَا تِحْشِمْشِ... مِيْسَالِشْ... حْوَايْجِكْ مُوشْ مُهِمْ، بعد العشاء تَغْسِلْ وتْبَدِّلْهُمْ... اُقْعُدْ تَوَّا.

احتار خميس... احتار المسكين لأنه لم ير أبدا هذه الفخامة ولا دخل أبدا قصرا... ولا تحدث أبدا مع عين من الأعيان، ولا وجها من وجوه البلاد، ولا جلس إلى مائدة مثل التي يراها أمامه كأنها خرجت توا من حلم بهيج لا يَطُله إلا خيال جامح.

ـ مَا نْجِّمْشْ نَاكُلْ هْنَا...

وانطلقت من فم الغريب ضحكة كشفت عن أسنان مصفّفة ناصعة البياض. وارتبك خميس ارتباكا شديدا، وحسب أنه نطق بكلام لا يجوز قوله في حضرة هذا الذي لم يعرف كيف يصنّفه.

ـ اقعـــد.

جاءه الأمر هذه المرة بلهجة جافة، ودون ضحك، ولا ابتسام، ورأى كيف انقلب ذلك الوجه المبهم إلى وجه قاس.

جلس الغريب قبالته دون أن ينبس بكلمة، ونظر إليه نظرة مبهمة، ثم أشرقت أساريره فجأة بابتسامة كأنها شمس انبرت من وراء سحاب تدفعه ريح قوية. لكنه لم يتكلم مما دفع خميس إلى السؤال :

ـ سيدي لا نعرفك ولا تعرفني... غْلَاشْ جِبْتْنِي لِهْنَا ؟...

بعد ضحكة مقتضبة، قضم الغريب تفاحة كبيرة وبقي يمضغ ما قضم حتى بلعه ثم أجاب :

ـ هذا سؤال ما عندوش جواب... يِلْزِمكْ... أنت بالذات... بَرْشَة وقت باش تِفْهْمُو... اللّهم إلا إذا كنت ذكي بَرْشَةْ... بَرْشَةْ... كُولْ وماعادش تسأل.

ـ آش سمَاك ربي يا سي...؟

ـ موش مهم... مَا نْقُلِّكْ غْلَى اسمي إلا بعد... كُولْ تَوَّا... واسكت.

إذا كان الأمر كذلك فالأكل أفضل من التساؤل والتَخمينات، وعلى كل حال، إن كان هذا حلما فهو من أمتع الأحلام التي حلمها، وإن كان واقعا فإنه من أروع ما عاش.

انهمـــك خميس في الأكل دون أن يعير اهتماما لمضيفه الســـخي الذي لا يأكل إلا التفاح، ولا ينزل بصره إلى مفاخر الطاولة، بل بقي ينظر إليه وفي عينيه ابتسامة شقيّة.

ـ الحمد لله... شبعت يا سيدي... نْجِّمْ نْرَوَّحْ تَوَّا ؟ ...

حرّك الغريب رأسه بالنفي، وقرّب طبق الغلال ناحية خميّس ثم قام من مكانه واتجـــه نحو باب منمّق بزينة مذهّبة وفتحه ثـــم عاد نحو خميس ووضع يده على كتفه وقال له:

ـ بعدما تأكل... ادخل للباب هَذَاكَةْ.

ورمى خميس بالتفاحة التي كانت بيده وهي مازالت كاملة ثم وقف بعصبية :

ـ اسمع يا ســـي آش سمّاك ربي... يَا إِمَّا تْقُولْ لِي عْلَاشْ عَشِّيتْنِي هَا اللِّيلَةْ، واش تحب عندي... وإلَّا لَا حَلِّتْ ولا رَبْطِتْ بِينَاتْنَا.

وابتســـم الغريب، وهزّ كتفيه باســـتهزاء ثم اتجه نحو الباب الذي فتحه دون أن يجيب خميس.

زفر خميس، وســـاءل نفســـه وهو محتار : والآن ... ما العمل ؟ فقد شـــبع حتى التخمـــة... وهذا هو المهم بالنســـبة إليه، ويمكن لـــه أن يخرج من حيث أتى دون أن يعترضه أحد بعدما ذهب هذا المخنّث من ذلك الباب.

تفتق ذهنه على صور وعلى أســـئلة لم يعهد إلقاءها على نفســـه، وتذكّر ذلك الرجـــل الطيـــب الذي أخذه معه علـــى عربته النتنة إلى هذا القصـــر للقيام بعمل وضيـــع... ترى أين هـــو الآن ؟ وهل جاء به لأمر مريـــب ؟ وهل دفع به إلى وضع يحسد عليه، أو العكس رغم هذه الفخامة وهذا الخير العميم الذي يشاهده ويلمسه ويعايشه ويأكل منه؟

التفت إلى الباب المفتوح واســـترق السّـــمع علّه يســـمع كلاما أو حركة، لكن الصمت كان طاغيًا على القاعة الفسيحة.

لم يتحـــرك خميس، فقد شـــدّه ارتباكه وحيرته بينما اتجـــه عقله وغريزته نحو الباب، وتساءل : هل يعود إلى كريطة الزّبّال ويقضي بقية حياته في النّتونة والشقاء والعذاب؟ أو يبقى هنا ويدخل ذلك الباب ويعيش ؟

من يدري؟ ربما يلقى حياة الترف والدّعة والرّخاء أو... العبودية؟ نعم العبودية؛ لأن هذا المكان مبهم جدا... ولا يمكن للمرء أن يعيش فيه إلا وهو مقيّد، على الأقل، بدواعي هذه العلامات من الترف.

ـ بُوزِيدْ مِكْسِي بُوزِيدْ عِرْيَانْ..

قالها خميس وهو يأخذ تفاحة أخرى ويقضمها كما فعل ذلك الغريب ثم اتجه نحو الباب المفتوح بعدما ألقى نظرة على الطاولة التي تركها في حالة فوضى وابتسم لنفسه تماما كما يبتسم ذلك المسخ.

دخـــل الباب المجهول فأفضى به إلى رواق طويل تدلت في ســـقفه ثريات تشـــعّ إشـــعاعات جميلة تضيء مثل نور القمر المكتمل بينما فرشـــت أرضه بزربية كأنها منبسط أدركه الربيع فانتشرت عليه ألوان من الأزهار والنباتات الفاقعة الألوان.

ـ زعمة وين مشى ؟

ســـأل خميس نفسه هذا الســـؤال وهو حائر لا يدري أين الباب الذي سيطرقه ليتبع ذلك المخلوق الذي حيّره، فقد تعدّدت الأبواب على طول الرواق وهي كلها متشابهة قد خيّم عليها صمت مطبق لا تشوبه إلا همهمات بعيدة قادمة من ذلك المكان الذي حولوه إلى قاعة أكل لهؤلاء البؤساء.

أدرك خميس انه سيكون هذه الليلة ضحيّة لعبة لا يدري كيف ستنتهي، فإما أن يكون ذلك الغريب قد عزم على تمضية الوقت في دلال لا معنى له وإما أن يكون قد خطّط لأمر يريد تنفيذه على مراحل دون إثارة الشكوك.

تقـــدم خميس خطوات مترددة وهو يقـــارن بين نظافة هذا المكان وفخامته وبين حالته الرثة التي تقطر فقرا وبؤسا فوجد أنه لا يستحق المشي لا وسط هذا الرواق البهيج ولا فوق تلك الزربية الغالية..

وقفـــل راجعا من حيث آتي وقد قرّر أن ينســـى حلم اليقظة هذا وأن يعود إلى كريطـــة الزبلة فهي أليق به من هذا البذخ الفاحش الذي لن يســـتطيع العيش فيه ولو ليلة واحدة.

ـ لْفِينْ مَاشِي... اِرْجَعْ...

تسمّر خميس في مكانه ولعن الشيطان والتفت إلى مصدر الصوت فرأى صاحبه وقـــد غيّر بدلتـــه ولبس جلبابا حريريا تموّج لونه الأزرق الفاتح على ضوء الثريات فأصبح كأنه صفحة البحر ساعة الشروق.

ـ آشْ نْحِبْ عِنْدِي... مْرَوَّحْ.

ودار خميـــس علـــى أعقابه وقد صمّـــم على مغادرة المـــكان دون رجعة. لكن الصّوت كان هو الآخر قاســـيا وفيه رنّة خاصة أربكت خميس وجعلت عرقا باردا ينزّ من ظهره.

ـ لُو كَانْ تْزِيدْ تْقَدِّمْ خطوة أخرى رأسك نْجِي بِينْ سَاقِيكْ... اِرْجَعْ.

ورجـــع خميس وقد أيقن انه دخل دنيا غريبة وســـيق إليها إمّا غرّة أو عنوة أو صدفة فهو الآن في عرين الأسد وسيكون لقمة سائغة لهذا المخنّث الذي يقوده الآن إلى ممر ضيّق بعد خروجهما من الرواق الفخم.

ـ أنا اسمي... جورجيو... و... رشيد... عِندي زُوزْ أَسَامِي...

واستوقف خميس صاحبه وفي عينيه توسل ثم قال له باستعطاف :

ـ يا سيدي جـــ... جـــ... رشيد بجاه ربي خَلِّينِي نْرَوِّحْ.

لكن جورجيو تقدم نحو باب فتحه وتنحّى جانبا وبسط راحة يده بحركة أنيقة طالبا من خميس الدخول ثم دلف وراءه وأغلق الباب.

ـ هذا حمام... وهَاذُمْ حْوَايِجْ جْدُدْ.

لم يدر خميس هل هذا حمام فعلا ؟ لا... لا انه قطعة رخام كبيرة صقلت بحيث أصبحت على شاكلة رائعة رشقت بها تلك الحنفيات المذهّبة وعدّة أشياء أخرى لا

يمكن لخميس أن يعرف وظيفتها في هذا المكان العابق بروائح منعشـــة... وذلك الماء الرقراق في حوضين واحد يتصاعد منه البخار والآخر يبدو انه يحوي ماء باردا.

ـ تفضل اغسل روحك مْلِيحْ والبس... هَانِي نِسْتَنَّى فِيكْ...

كان جورجيو شهما هذه المرة فقد فهم أن اللعبة لا يمكن أن تطول على حساب هذا الساذج وأن الوقت حان لطمأنته حتى لا يضيع من بين يديه ويحاسب حسابا عسيرا ربما يودي به إلى الموت إن لم يقم بأداء ما طلب منه هذه الليلة.

ـ "ما تخافش... هاني خارج... إِطْمَانْ مَا ثَمَّةْ كَانْ الخير".

وأغلق الباب وراءه وبقي واقفا لبرهة ثم فرك يديه غبطة بهذا الصيد الممتاز الذي سيزيده حظوة في عيني مخدومته.

أما خميس فقد زادت حيرته وتعاظمت، فالعشـــاء كان صدفة وهذا المسخ يلقاه صدفـــة أيضا،فهـــو لم يره من قبل وحتى إن رآه فهو لن يجرؤ أبدا على الاقتراب من هذه الأشـــكال التي تثير في نفسه التقزز... كل هذا معقول ومفهوم، أما ذلك الرواق وهـــذا الحمام وتلك الملابس المعلّقة التي تبدو فخمة كما تبدو أيضا على مقاســـه فهي كلها أشـــياء محيّرة ولن يجد لها جوابا إلا عند ذلك المســـخ... فهو الوحيد الذي يمسك الآن بخيط هذه الغرائب والعجائب التي وقعت هذه الليلة.

ـ "كان مت... نموت طاهر"

ونـــزع خميس أسماله بعد تردد كبير فهو لم يدخل الحمام منذ ختانه ذات يوم بعيد... بعيد جدا. ولم ير في حياته مثل هذا المكان الذي ربما يكون جزءا من الجنة، ومـــن يدري ؟ فهل يمكن فعلا أن يوجد حمام بهذا الشـــكل في الدنيا في حين أن خـــارج هذا القصر وغـــير بعيد عنه توجد حياة أخـــرى لا تنطبق عليها إلا كلمة حقيقية واحدة هي البؤس ؟

غطس خميس، وبذلك انتقل إلى عالم آخر، عالم تطغى فيه الحواس وفيه تتفتّح المهجة على شـــعور آخر لا يمكن للمرء أن يعرفه وهو خارج هذا المغطس الفواح... واغمـــض عينيه وتخيّل ثم تخيّل وطالت حبال الأحـــلام والخيالات حتى انه رجع

بذاكرته إلى كل الأعوام العشرين التي عاشها كأنه حمار يحمل أسفارا ولا يفقه من ناموس الدنيا سوى المأكل والمرقد، فقد تذكر كيف هجر الدوار بعد موت والديه بمرض مفاجئ وكيف هام على وجه البسيطة دون أن يعرف اتجاها محددا، وكيف وصل إلى المدينة من ناحية باب سعدون وكيف بقي في ذلك المكان أعواما وهو يتسكّع أياما ويعمل يوما وينام كثيرا ويجوع أكثر، وحاول حتى أن يسرق ليأكل، حاول ذلك مرارا لكنه لم يستطع المواصلة فقد كان يتذكر قول أحدهم له : "اذهب واعمل احسن لك فجسمك تبارك الله جسم بغل... ولك منظر حسن فاسع إلى رزقك علّ الله يفتحها في وجهك..."

لكن الله لم يفتح في وجهه لا بابا ولا شباكا وبقي فقيرا معدما ولم تنفعه لا قوة بدنه ولا وسامته المتخفية تحت الوسخ والقذارة والأسمال البالية التي لم تجده كلها نفعا في السابق إلا في هذه الليلة : فيا سبحان الله ؟...

توقف فجأة عن الحلم وتوقف عن حكّ جسمه "بالحكّاكة" الخشنة ونظر إلى المرآة المقابلة التي لم يتفطن إلى وجودها من قبل فاكتشف أنه وسيم حقا بل أكثر من ذلك.

وضرب جبهته بيده لأنه فهم فجأة، فهم هكذا بالفطرة لماذا قاده جورجيو إلى هنا وما هو المطلوب منه، ففرح فرحا عارما وعاد إلى الغطس في الماء كأنه يغطس في ألذ حلم فتمادى في الإبحار في الخيال حتى سمع طرقا على الباب.

***

انفتح الباب ودخل منه وصيف كأنه كتلة من عجينة سوداء لا يظهر منه إلا بياض عينيه ثم اتجه نحو خميس المنزعج بعدما سحب "المنشفة" التي كانت معلقة بالمشجب ودون كلام أنهض المستحمّ وجفّف له جسمه رغم المعارضة الشديدة التي أبداها خميس لكنها ذهبت سدى أمام تعنّت الوصيف الذي بدا كأنه لا يسمع ولا يفقه ثم ألبسه قفطانا حريريا وأخرجه من غرفة الحمام كأنه عريس محتفى به وقاده رأسا إلى باب كبير مختلف هذه المرة عن الأبواب الأخرى وطرقه طرقا مميّزا ثم فتحه ودفع خميس إلى الداخل وأغلق الباب دونه.

والآن... هل يستطيع القول انه فهم أسرار اللعبة التي دخلها عن غير قصد والتي قادوه إليها دون أن يتركوا له وقتا للتفكير ؟ لكن قبل كل تفكير آخر أو تخمين موضوعي، هل من الممكن أن يفهم لماذا كل هذه الفخامة والضخامة في كل شيء ؟... ألم يكن من الأجدى أن يتمّ الأمر في مكان آخر أكثر تواضعا ؟ هذا إذا كان في المسألة أمر ؟

أكيد أن في الأمر مسألة، فالغرفة الشاسعة هذه التي عتّمتها ستائر ثقيلة في لون العسل والأرائك المذهّبة المنتصبة في كل ركن ثم تلك المرآة العظيمة كأنها حائط بلوري قائم بحاله وأمامها تحف لمّاعة منها ما هو محبوس في كرات من البلور ومنها ما هو شامخ بأشكاله الغريبة، ثم تلك الطاولة ؟ لا إنها ليست طاولة... بل تحفة رائعة من البرنز قائمة على أربع قوائم وعليها عشرات القنّينات متفاوتة الأشكال والأحجام والألوان. كل هذا ولا يتساءل المرء ولا يتوه ؟.

أراد خميس أن يتمادى في التعجّب أمام هذا البلاء العظيم وأن يحاول فهم سرّ حشره في هذا المكان ؟ يا ناس... هناك غلطة ؟ لقد ارتكب ذلك العلج جورجيو غلطة فادحة... فعوض أن يدخل أميرا أو أي شخص آخر من كبار القوم إلى هذه الجنة... فقد أدخله هو... وسوف ينكشف أمره وينال جزاءه الصارم.

وتوقف تعجب خميس وتساؤله المتكرر فقد باغته صوت لا هو رجالي ولا هو أنثوي :

ـ أُقْرُبْ... أُقْرُبْلِي... شْوَيَّةْ...

التفت ناحية الصوت فرأى أريكة كبيرة في ناحية من الغرفة لم يطلها بعد بصره وقد فاضت منها غلالة وردية لم تستر إلا القليل من جسم فائض هو الآخر لحما بضا.

شقشقت الأساور الذهبية على حركة قامت بها المرأة نحو خميس مفهمة إياه أنها تريده أمامها مباشرة.

وتمتم خميس وهو حائر بين التقدم والإحجام :

ـ يا رسول الله تحضر.

ومـع ذلـك تقدم، فقد أراد أن يرى وجه المرأة الـذي لم تغمره أضواء المصابيح المركونة، وأخيرا رأى الوجه. سـبحان الخالق... أهذا وجه ذلك الجسـم العظيم ؟ انه وجه صبية مستدير مثل القمر ليلة تمامه...

ـ كَمَيِّسْ...

والتفـت خُمَيِّسْ حواليه فلم ير أحدا... واعتقـد أنها تنادي آخر اسمه كميّس... لكن ضحكتها الرنّانة وذلك الزند الممتلئ لحما والمخنوق وبأسـاور وشناشـن من ذهـب وذلك الإصبع الذي يحمل خاتما اكبر منـه والذي اتجه نحوه وأفهمه أنه هو المعني والمقصود لا غيره.

ـ أنتَ.. انت كُمَيِّسْ.. أُكْرُبْ.. أُكْرُبْ هنا..

تقدم خميس وهو يتلعثم ليبرر وجوده في الغرفة :

ـ والله... والله... يَا للاَّ، رشيد.. هُوَ... هُوَ اللِّي... جَابْنِي لِهْنَا...

ـ مَا نَعْرَفْشْ... نِتْكَلِّمْ أَرْبِي... يَاسِرْ... أُكْرُبْ.

ـ آه... هـذا مأزق آخـر... فلا ذلك المخنث أفهمه لماذا هـو هنا ولا ذلك العبد الغليـظ أفاده ولو بكلمة... وأخيرا هذه الحسـناء التي لا تتكلم لغته لكنها أفهمته بلغـة العيون والحركات... أنها تريده هذه الليلة... وأنهم اصطادوه لها... وأعدّوه لها... ويقدّمونه لها الآن نظيفا معطرا لا شـائبة فيه. إذن الأمر في غاية البسـاطة... وبما أن الحظ ابتسم له فجأة... بل ضحك ملء شدقيه فليتقدم إذن.

ابتسم خميّس لتلك الابتسامة المغرية التي دغدغت حواسه دغدغة مثيرة فذابت كل مخاوفه وتسـاؤلاته، وشـعر بالاطمئنان وبالثقة في رجولته... آه... انهم اختاروه فعلا لوسـامته ولفحولته البادية على قسمات وجهه وعلى كامل جسده الشاب... أمـا الباقي فلا يهم، فلقد كان فقيرا معدما ، وها هو الآن في العزّ والنعيم لابفضل عمل أو تدبير بل بفضل الفحولة التي سيجربها الآن لأول مرة. إنه ذكي جدا، ذلك المسخ جورجيو...

ـ اقعد... يا كميس

وقعد خميس قبالتها على الأريكة فخال نفسه يستسلم إلى سحاب منفوش يغوص به إلى بعيد... بعيد..

- يِلْعَنْ بُو الدّنْيَا... مْحْلاَهَا...

ذلك ما نطق به خميس وهو مبتسم نشوان بهذه القعدة التي لم يتمتع بها قبله أي جدّ من أجداده البعيدين والقريبين. هذه هي إذن الحياة أو لا تكون... ليلة واحدة مثل هذه في "هذه الحياة الكلبة" وبعدها العدم.

- أنت تحب النساء... يا كميس ؟

وهل هذا سؤال يا ناس ؟ هذه المرأة التي تقطر غنجا وحسنا... وأشياء أخرى رغم عظمة جسدها، تسأله وهي أمامه لا تسترها إلا هذه الغلالة التي لا تزيد إلا في فضح مفاتنها، تسأله هذا السؤال ؟

وحرّك رأسه بالإيجاب كأنه ينطح غباوة هذا السؤال.

- برافو... كميس... عندك زوز نساء... ها الليلة... أنا... ووحدة أخرى...

" يا كريم يا رب" هذه هي إذن ليلة القدر التي يتحدثون عنها والتي لا تأتي إلا لمن ولدته أمه ليلة القدر ؟ امرأتان في ليلة واحدة بعد جدب السنين وتشقق القلب من جفاف الحرمان وجفوة الحياة ؟

دفعت له الحسناء بطبق ذهبي تكوّمت عليه أصناف من المرطبات والحلوى وشجعته على تناول ما طاب له منه بابتسامة آية في الإغراء، ثم صبّت له شرابا ابيض من قنينة طالت رقبتها الرفيعة حتى أن السائل انحبس فيها ولم يخرج إلا بصعوبة تاركا وراءه فقاعات ارتدت إلى قاع الزجاجة محدثة بقبقة منعشة.

وأكل خميس وشرب... شرب كثيرا حتى انطلقت أساريره وتحرّر فيه كل ما كان محبوسا... وأراد أن يكون هو البادئ... وكاد يندفع بكل ما أوتي من فورة الصبا... لكن اليد الناعمة حطّت على خده في لمسة إثارة... ورأى المرأة الفائضة تنهض وتنهضه معها...

وانقاد لها خميس ويده في يدها وقد بدأ يحلم بالأخرى.

خيّل لخميس أن هذا الرّواق الطويل الذي يمشـــي فيه وراء هذه الحسناء الفائضة لن ينتهي، فهو ضيق وشبه مظلم ولولا بعض أضواء خافتة تضيء سقفه لكان أشبه بزقاق من أزقة المدينة في عتمة الليل.

حاول أن يســـأل المرأة لكنه امتنع لأن لسانه قد ثقل في فمه ولم يستطع تطويعه لقول ما دار بخلده ففضل السكوت وانتظار نهاية هذا المطاف وعقله شارد نحو هذه المرأة التي تســير أمامه وتقوده إلى امرأة أخرى بطريقة بدت له غريبة بعض الشـــيء، فقد التفتت إليه عدّة مرات لتشـــير إليه بالحذر الشـــديد وبالصمت الكامل، فكان يحاول التماسك قليلا والمشي باستقامة حتى لا يطاوع الدوران الذي تلاعب برأسه وجعله يرى هذا الرواق يتحرك يمنة ويسرة.

وأخيرا توقفت المرأة أمام باب كان هو الأخير في سلســـلة الأبواب التي مرّا بها ورآها تشـــير إليه بالتوقّف دون أن تلتفت إليه ثم تضع يدها برفق على كرة القفل وتديرها بكل حذر حتى انفتح الباب ثم تنحّت جانبا ودعته إلى الدخول.

دخـــل خميس واجف القلـــب وقد أحسّ بالخوف لأول مـــرة منذ دخوله هذه المغامرة، وتفاقـــم خوفه عندما أغلقت المرأة الباب وتركته وحيدا في العتمة الخفيفة ثم أســـرعت عائدة إلى جناحها وقد خفق قلبها خفقانا شـــديدا لنجاح خطتها التي رسمتها بمعية جورجيو.

كان العلـــج في انتظارها وكأس رفيعة في يده وهو في قمّة التشـــنّج، وحالما رآها انطلقت أســـاريره بفرحة كانت مكبوتة، ولم يسألها لأنه قرأ في عينيها تلك الشّعلة التي تعوّد عليها كلما نجحت خطة من خططهما الجهنمية.

ـ برافو... برافو كلوديـا...

تهالكت كلوديا على أريكتها الوثيرة ثم تناولت الكأس التي أعدّها لها جورجيو وقذفت بمحتواها في حلقها دفعة واحدة.

ـ نمشي نشوف أش وقع...

ونهرتــه كلوديا بنظرة زاجرة وأشــارت بيدها التي أمســكت بالكأس الفارغة نحو الأريكة التي جلس عليها خميس منذ حين فامتثل جورجيو وجلس مطيعا في انتظار ما سيسفر عنه حدث الليلة.

***

كانــت كلوديا محظية من محظيات الباي... كانت تصول وتجول في الســرايا أيام كان في الوجه ماء الشباب الفوار وهي مازالت شابة رغم تعاظم بدنها لكنها فقدت حظوتها بمرور الأيام وقدوم علجيات أخريات إلى الحريم اكثر منها شــبابا وصبابة لكنها لم تستسلم للأمر المقضي وعقدت العزم على إشباع نهمها من الرجال حتى لو ضربوا حولها حراســة مشــددة... ووجدت في جورجيو المخنث الرفيق والصديق وكاتم السّر الذي لبى لها كل طلباتها المجنونة وأدخل إلى مخدعها أصنافا من الرجال بطريقة لم تثر انتباه أي حارس من حراس الســرايا... وبذلك نعمت بما حرمت منه مع الباي وانتقمت لنفسها أروع انتقام، لكن الحب تمكن منها ذات ليلة... فهي لم تعرفه في الســابق وكانت تسمع عنه من صاحباتها العلجيات وتسخر من كل من أسّــر الحب قلبها وتؤكد لهن انه غير موجود في الوســط الذي تعيش فيه وأن الحياة عبارة عن ليلة طويلة كلها متعة ومجون لا غير، حتى جاء ذلك الولد الشركســي... إنه مثل إله إغريقي... جميل... رائع... فحل. ولم تعرف كيف تصفه لنفسها وهي تراه يدخل عليها في مخدعها ذات ليلة ووراءه جورجيو... جورجيو الذي كادت تضحك من منظره فقد بدا لها قزما يقف منكسرا وراء عملاق.

ومن تلك الليلة اســتأثرت كلوديا بالشــاب الشركســي ولم تقبل في مخدعها أي بديل له رغم نصائح جورجيو الذي عشــق هو الآخر معشــوق ســيدته فكاد أمر الثلاثة ينكشــف بسبب انشغالهم الكلي بمتعهم المتبادلة لولا حدوث أمر قلب الوضع رأســا على عقب وجعل المتعة والليــالي الحمراء تتوقف ويحلّ محلها الفراغ المريع والشعور المقيت بالإهانة والضياع إضافة إلى الغيرة العمياء التي سكنت قلب كل من كلوديا وجورجيو.

فقد انقطعت زيارات الشــاب الشركســي فجأة، وانقطعــت معها أخباره، فجنّ جنون كلوديا وجورجيو وســعى كل منهما من ناحيته إلى معرفة السّــر، ولم يطل

بهما السؤال فقد اخبروهما أن الشاب الجميل قد سافر في بعثة إلى استنبول لتقديم هدايا باي تونس إلى السلطان التركي.

أعاد هذا الخبر للنديمين الأمل الضائع، لكن لفترة قصيرة، فقد عاد الشاب الشركسي من استنبول. عاد مع هدايا السلطان للباي. هدايا ثمينة، ومن ضمنها شركسية مثله جميلة جمالا متوحشا، وصدفة أحبها المأفون بجنون رغم أنه عارف أنها لن تكون له وأنها هدية من سيّد إلى سيّد وأن المماليك والخدم وأشباههم لا يمكنهم أن يتطاولوا على متاع الأسياد.

ما إن استقرت القادمة الجديدة في السرايا حتى صارت محظية الباي الأولى فملكت يومه وليله وأفرغت حلقات الندماء والنديمات من حوله وزرعت الغيرة في كل القلوب ومن ضمنها قلب كلوديا وقلب جورجيو، ولم تلتمع الغيرة فقط في القلبين بل خالطهما شعور بالإشفاق على الشاب الشركسي المسكين الذي تيّمه الحب فطار صوابه وأقعده عن متع الحياة فعاف مخالطة رفاقه وعاف رؤية جورجيو وامتنع رغم الإلحاح عن زيارة كلوديا ولو لليلة واحدة.

جنّ جنون كلوديا الذي وافق جنون جورجيو وقرّرا أن يزيحا تلك الدخيلة المفسدة لمتعهما وان يمحواها من الوجود ويريحا بذلك كل القلوب التي عذبتها و تعذبت من أجلها وأن يعيدا المياه إلى مجاريها دون أن يتفطن إلى خطّتهما أحد ودون أن يعلم بتفاصيلها إلا ثالثهما وهو ذلك الأسود الأصم الأبكم الذي سيقوم بالدور الثالث في عملية هذه الليلة...

وكان خميس المغفل هو الوسيلة.

***

جلس خميس على حافة السرير الكبير وفرك عينيه بشدة... إذ يبدو أن حلم هذه الليلة لم يصل بعد إلى النهاية وان رأسه مازالت ثقيلة بما شرب وان ما يقع عليه بصره الآن يبدو ضبابيا كأنه فجر يوم شتاء، إلا هذه... هذه الشابة النائمة في هذا السرير الكبير الذي أسدلت عليه ستائر شفافة مثل هذه الغلالة التي لم تستر شيئا من جسد هذه الشقراء الرائعة.

لم يصدق خميس ما تشاهده عيناه فمدّ يده بحذر شديد ليتأكد من الحقيقة الحيّة... وواصلت اليد امتدادها، وما كادت تصل إلى ذلك الفخذ العاري وتلمسه لمسة خفيفة حتى فزعت الحسناء من نومها كأن حلما مزعجا أيقظها، لكن اليقظة كانت أفزع.

فقد رأت هذا البني آدم المنحني عليها المتحفز للإغارة على مفاتنها يتراجع فجأة فكادت تصيح، لكنها تمالكت واستوت في فراشها وما كادت تفعل حتى انشطر باب الغرفة في فرقعة مزعجة.

وكان أول الداخلين ذلك الوصيف الثور...

حلّت الطامة... وامتلأت الغرفة فجأة... ورأت وجه الباي ولم تر الوجوه الأخرى ولم تسمع شيئا فقد تفجّر الدم في عروقها وأصمّ أذنيها وكاد يعمي بصرها... فأرادت أن تقول كلمة... أن تفهم ماذا حصل... وماذا يفعل هذا المخلوق الذي لم تره قبل الساعة والذي بدا لها مثل كائن غريب أسقط في فراشها إسقاطا.

رفعوها بإشارة من سيدها ووضعوها حالا في كيس كأنّه أعدّ خصيصا لها وحملوها وخرجوا بها في ظلام الليل لتعدم حالا.

صاح خميس، فقد طارت السكرة وأراد أن يفسر لهم سبب وجوده هنا :

ـ يَا نَاسْ... رَانِي...

ولم يكمل جملته فقد ضربه أحدهم ضربة أفقدته وعيه وحملوه إلى موضع قصّي من حديقة القصر... ثم قيدوه وكمّموا فمه ووضعوه لحين في ركن حتى استفاق.

***

لم يجد خميس نفسه هذه المرة لا في الحرير ولا في النّعيم... فحالما فتح عينيه رأى عديد المشاعل تتوهّج ورأى حركة حثيثة وكوما من الحجارة... وظلالا تتحرك هنا وهناك وأحدهم يخلط الرمل والجير.

أراد أن يصيح ويستغيث لكن تلك الخرقة التي تسدّ فمه حالت دون ذلك.

أراد أن يتحرك ويتخبط فوجد نفسه كأنه مصبوب في قالب من الجبس.

انفطرت من عينيه دمعة حارة فكانت العلامة الوحيدة الدالة على انسحاقه.

حملوه كالكيس... ثم أوقفوه على رجليه ثم حشـروه في فتحة كبيرة في الحائط كأنها قدّت على مقاسه.

ورأى البنّاء يضع الحجر الأول أمام رجليه والحجر الثاني والثالث والبناء يرتفع شـيئا فشـيئا ليصل إلى مسـتوى صدره ويضيق عليه حتى يكاد يطحنه... وحاول أن يسـتعطفهم بعينيه لكنهم كانوا في شغل عنه كأنه حجر وليس بشر مثلهم. إلى أن جاءت الحجرة الأخيرة لتغلق عليه قبره الأفقي وتسـّد الرؤية والتنفس... والأمل في النجـــــاة.

أظلمت الدنيا في عيني خميّس وضاق صدره وفاضت نفسـه قهرا فلم يتمكن حتى من التخبّط ليعين روحه على الاستسلام والخروج إلى بارئها بأمان...

وطـال عذاب المسـكين في القبر المظلم حتى اختنق ومـات وهو لا يدري لماذا اختاروه هو بالذات ليدفنوه حيّا في حائط من حيطان السرايا... وهو المسكين الذي لم يتمتّع أبدا حتى بلذة واحدة من لذائذ الحياة... ويوم اقتربت يداه من نعمة الدنيا حرموه منها ثم دفنوه وعينه حيّة.

في الغد... أصبحت الحياة في السرايا عادية كأن شيئا لم يقع، ومرّ جورجيو قرب الحائط الذي دفن فيه خميس فتوقف أمامه قليلا وابتسـم ابتسـامة صفراء ثم نزع زهرة الأقحوان التي كان وضعها منذ حين بين أسـنانه ورشـقها في شـق ظاهر من شـقوق الجدار حيث مدفـن خميس وانحنى انحناءة خفيفة ثم اسـتدار عائدا إلى السرايا وهو يدندن بنغم مرح.

البِشْمَـــــــق

جلس الصبيّ أمام عرفه "ســي احْمِيدَةْ" بكل هدوء مع شيء من التحفز لتلبية أي طلب يصدر عن الرجل الوقور المنشغل بوضع اللمسات الأخيرة على البشمق، وكان يفعل ذلك بكل صبر وتأنّ وبـكثير من الإتقان، ولما طال مكوث الصبي أمام "المعلم" ولم يســمع أي أمر بقضاء حاجة، حوّل نظره عن أصابع المعلم وانشــغل بحركة المارة أمام الحانوت في نهج سيدي بن زياد.

كان النهــج هذا الضحى على غير عادته، فقد دبّت فيه الحياة باكرا وشــغله الباعة والدلالون بضجيجهم وصياحهم، وكان الصبي يعرف أن الحركة نشــطت بمناســبة ليلة النصف من رمضان المعظم وتمنى لو اســتطاع التجوّل في بقية الأسواق المجاورة ليتسلى بالنظــر إلى جموع الناس أفضل من البقاء في هذا الحانوت الكئيب والنظر إلى وجه عم إحميدة الذي أثّر عليه الوقار فأصبح كأنه وجه "صنم" لا يضحك ولا يبكي.

ـ يا ولـــــد...

استدار كالملسوع نحو المعلم ثم استوى واقفا استعدادا لتنفيذ الأمر.

ـ أعطني ذلك الصندوق...

ناوله الصندوق الكرتوني الصغير فأخذ المعلم إحميدة البشــمق الذي أنهاه توّا ثم لفّه في لفافة رقيقة ووضعه في الصندوق بحركة أنيقة ثم أغلقه.

ـ إسمع مْلِيحْ ... وصّل ها الأمانة لسيدنا القاضي... مِنْ يِدّكْ لِيدُّو..

امتثل الصبي للأمر وحمل الهدية كأنه يحمل حياة المعلم حميدة بين يديه.

وقف أمام باب الدار ورفع بصره إلى علوّ الباب كأنه يقارن هذا الارتفاع بارتفاع باب داره الذي يبدو له دائما انه لا يستحق تسمية باب.

طرق الباب وبقي ينتظر الجواب، وأعاد النظر في فخامة الباب ونظافته ثم بدأ يتشاغل بمحاولة عدّ مساميره السوداء حتى سمع صوتا نسائيا :

ـ آش كون ؟.

ـ سيدي القاضي هنا ؟

ـ أي نعم آشكون أنت... آش تحب ؟

ـ عَرْفِي إِحْمِيدَة البشامقي بْعَثْلُو هدية.

لم يتلقّ ردا فوريا وسمع وقع خطوات تبتعد في السقيفة ثم تعود بعد برهة. وانفتح له الباب على وجه صبية وصيفة في مثل عمره تقريبا..

ـ هات الهدية...

ـ لا... نحب اِنْسَلِّمْهَالُو مِنْ يِدِّي لِيدُّو..

دخل السقيفة ثم صحن الدار وترك الخادمة تسبقه إلى غرفة ثم تعود وتأمره بالدخول.

وجد القاضي جالسا على "كنبة" وقد وضع نظارة مستديرة على عينيه وأمسك بكتاب ضخم ، ولما رآه يدخل رفع نحوه عينين زرقاوين وأشار له بيده ليتقدم.

ـ هات يا ولد ، أرني البشمق ، وسلم على عرفك حميدة وقل له، سيدنا يشكرك ويدعو لك بالخير.

لم يتقدم الصبي ولم يضع البشمق بين يدي القاضي بل تسمّر في مكانه وبقي ينظر تارة إلى عيني الرجل وتارة أخرى إلى الكتاب الضّخم ، وأخيرا ... استجمع كل شجاعته وألقى بالكلمة التي أثقلت على عقله لحظة دخوله على القاضي :

ـ أريد أن أصبح قاضيا يا سيدي الشيخ.

نزع الشيخ نظاراته ووضعها جانبا ثم أغلق الكتاب واستوى في جلسته وحدّج الصّبي بنظرة قاسية، ثم انفجر ضاحكا ضحكة عالية. وسكت فجأة.. ثم جذب الصّبي من يده بشيء من الخشونة وقال له :

ـ هل تعي ما تقول يا ولد ؟... هل تدرك طول الطريق ؟...

ولم يكمل البقية، فسكت كأنه ندم على ما بدر منه فترك الصبي يتراجع وهو ينظر إلى الهدية التي بقيت في يده...

ـ انصرف الآن، سوف أمرّ غدا على عرفك، خذ البشمق معك..

ذهل الصبي وكاد يتوسل إلى القاضي.. لكن نظرة الرجل القاسية جعلته ينصرف وهو يتساءل : ترى ماذا سيكون عقاب سيدي احميدة ؟

خرج من دار القاضي وهو كسير الخاطر ندمان على تطاوله العفوي على سيدي القاضي، لذلك قرر ألا يعود إلى حانوت عرفه البشامقي.

قضى بقية يومه وهو يتسكع في الأنهج والأزقة وقد امتلكه الخوف وانقبضت نفسه من سوء العاقبة، ولم يستطع تفسير سبب تصرّفه مع الشيخ القاضي ولا الدافع الذي جعله يفكّر فجأة في مثل ذلك الأمر حتى انتهى به التفكير إلى سؤال ارتاح إليه :

ـ ما عيب الإنسان في طلب ما يتمناه ؟ أعرف أني فقير وجاهل وابن جاهل، لكن ما ذنبي إن كنت أحب العلم ؟

***

انطلق آذان المغرب من جامع يوسف داي واقفرّت الأسواق والأنهج من الناس بعدما هرعوا إلى الديار للإفطار أو إلى المساجد لصلاة المغرب.

جلس الصبي على عتبة مدخل جامع يوسف داي المطلّ على سوق البشامقية وقد وضع الصندوق الذي احتوى البشمق إلى جانبه، ولم يفكّر في أمه القلقة على غيابه ولا في عرفه احميدة، بل انصرف إلى التفكير في الشيخ القاضي.

بــدأ المصلون يغادرون الجامع في أفــواج وفي زحمة حتى لم يبق منهم إلا المتباطئون من الشــيوخ أو ممن ليس لهم أهل يعودون إليهم، وبقي الصّبي في مكانه إلى أن شــعر بيد تمسك بكتفه بلطف فرفع بصره ليرى الشيخ القاضي ينظر إليه نظرة تساؤل ثم يقول له :

ـ ماذا تفعل هنا، ألم ترجع الصندوق إلى عرفك ؟

بدت على الصّبي بوادر البكاء، لكنه تجلّد وتماســك ونهض واقفا بأَنَفَةٍ وبشيء من التحدّي المحتشم :

ـ كيف أعود يا سيدي إلى عرفي بالهدية التي رفضت أخذها، وما عساي أن أقول له، وكيف أفسّــر له خيبتي ؟ لقد قضيت على حياتي وعلى مســتقبلي يا سيدي القاضي، كنت أريد أن أتعلّم صنعة أرتزق منها وأعين والدتي... فأنا يتيم فقير ولست قاضيا ولا عرفا... و...

وأجهش الصبي بالبكاء ثم مدّ يده بالصّندوق نحو القاضي الذي ابتسم بحنان. ثم حرك رأسه في إشارة تدل على أنه يرفض الصندوق.

ـ اذهب وأخبر والدتك أنك "ستشقّ الفطر" عندي.

اســتفاق من الدّهشة التي امتلكته بعدما غاب القاضي فأراد اللحاق به ليعطيه الصّندوق لكنه عدل عن عزمه ثم أطلق ساقيه للريح ليخبر أمه بما حدث.

عاد بعد ربع ســاعة إلى دار القاضي ولم يســتطع الأكل مع الشــيخ رغم جوعه وتنوّع الأطعمة التي وجدها أمامه، فقد عظم عليه الجلوس في حضرة الرجل الذي أخذ يعامله معاملة لطيفة أوقعته في الارتباك والخجل.

ـ كل ولا تشــغل بالك ولا تهتمّ... اطمئن ســوف أعلّمك، وســتبقى عندي، وسأرسل في طلب والدتك لتعمل هنا في الدار... أما عرفك حميدة فقد أخبرته هذا اليوم أنك ستعمل عنده في الصباح فقط وتقضي بقية اليوم معي.

احتــار الصبي بين فرحته بما سمع وبين شــكّه ويقينه ثم تــدارك صمته ودفع بصندوق البشمق إلى القاضي.

ـ خذ يا سيدي... أرجوك خذه... فقد أصبح حمله ثقيلا عليّ.

ـ سوف أعتبره هديتك لي يوم تتعلم... احتفظ به إذن إلى ذلك اليوم.

***

امتدت الأيام بهذا الصبي حتى كبر وشاخ.

التقيتــه ذات يوم صدفة بمكتبه بنهــج القعادين فحكى لي قصته. ولاحت مني التفاتة إلى رفّ عتيق فرأيت البشــمق فاستأذنت من محدثي في أخذه لأتفحّصه عن قرب وألمس فيه تاريخا ذهب وبقي ذكرى ملموســة تجسّــدت في هذه الزخرفة التي أبدعتها يد صنايعي انقرضت صنعته ومات هو ولم يبق أمامي ســوى هذا الشــيخ الذي كان في يوم ما ذلك الصّبي الطموح.

قال لي محدثي الشيخ وهو يرى إعجابي بالبشمق وتعجبي لحكايته :

ـ علّمني الشــيخ القاضي، فدرســت بجامع الزيتونة على أيدي أشهر مشايخها ومدرّســيها، وكلمــا تقدمت في العلــم والدّرس إلا وعدت إلى القاضي بالبشــمق لأسلّمه له كهدية حسب رغبته، لكنه كان يرفض دائما متعلّلا أنّي مازلت لم أتعلّم ولم أصل بعد إلى اليوم الذي يتسلم فيه الهدية.

ومات القاضي، وأصبحت وكيلا في العدلية "أي محاميا" وعرفت لماذا كان الشيخ يرفض الهدية، لقد كان برفضه ذلك، يدفعني إلى الاستزادة من العلم، وها أنا اليوم كما ترى، رغم أنى شــارفت على النهاية ما زلت أتعلّم ولم أفرط في البشــمق بل احتفظت به كذكرى عزيزة على روح شــيخنا القاضي... رحمه الله رحمة واســعة وغفر لنا وله.

البشــمــــــق : حذاء خفيــف كان ينتعله أعيان الــترك والقضاة الحنفية وقد خصصت لصناعته ســوق كانـــت موجودة بنهج سيدي علي بن زياد حذو جامع يوسف داي بمدينة تونس.

مـــــــــدام "ش..."

كنـــت أجلس مع أبي الضّرير على أحد مـــدارج جامع الزيتونة أرقب الوافدين على الجامع الكبير وأتفحّصهم واحدا واحدا بعينين فيهما الحزن والانكسار... وحتى الخبث أحيانا وكلما انحنى أحدهم ووضع قطعة نقدية في كفّ أبي إلا وألقيت نظرة خاطفة لأعرف قيمة الإحسان وأسجل بسرعة محصول اللحظة ثم أعود إلى التفرّس في الوجوه، وكانت أسعد أيامي هي أيام الجمعة لأني آكل يومها الكسكسي باللحم وأعـــود مع أبـــي بكثير من الفرنكات وفي بعض الأحيان بأشـــياء أخرى من لباس وحلوى وفاكهة.

مع مرور الأيام أصبحت أعرف بعض الوجوه التي يتردّد أصحابها يوميا على الجامع أو أسبوعيا لأداء صلاة الجمعة. وكان من بين تلك الوجوه وجه لفت انتباهي، فقد كانت تلوح عليه علائم النعمة والوســـامة والوقار، كان ذلك الرجل يصعد مدرج الجامع فلا يلتفت إلى أحد ولا يكلّم أحدا ولم يحاول ولو مرّة واحدة أن يحسن إلينا حتى بالقليل، ولم يتواضع أبدا ولم يلق على وجودنا التعس ولو نظرة خاطفة.

شـــعرت بشـــيء من الحقد عليه، لا أدري لماذا، وحاولت مرارا أن أصرف نظري عنه وأن أعتبره ككل خلق الله، لكني لم استطع... كنت أتمنّى، لحظة أراه، أن أصرخ في وجهه... أن أقول له إني هنا... أنظر إليّ يا سيدي وكفى.

كان عمري وقتها ثلاثة عشرة سنة ورغم الفقر والخصاصة فقد كان جمالي ظاهرا وأنوثتي متحفزة لبلوغ اكتمالها، وكانت قسوة الحياة تشدّ طموحي وتمنعه من التطلع إلى الآتي، لكن خوالجي ونوازعي كانت أقوى من كل الحواجز وكانت هي محرك خيالي ووجداني.

اكتشفت بعد وقت طويل أني أحب ذلك الرجل فقد بهرني بطربوشه المجيدي وبقامته المديدة وبلباسه البلدي النظيف جدا... وكان مرادي أن يشعر السيد بوجودي ولو مرة واحدة والبقية أتركها لنفسي وللأيام.

***

مرت ثلاث سنوات على حبي الصامت، وذات يوم جمعة وبينما كان قلبي وعقلي وإحساسي وكل جوارحي في انتظار "الموعد"، موعدي أنا لوحدي مع حبيبي صاحب الشاشية المجيدي أفقت فجأة على صوت ارتطام جسد. شعرت بجسم يغادر مكانه بجانبي ثم يتدحرج على مدرج الجامع بين أرجل الوافدين.

انتشلتني الصورة البشعة من أحلامي الوردية لأستفيق على ناس يلتفون حول أبي الذي استقرت جثته في أسفل المدرج.

انكببت بحرقة على وجه أبي ألثمه وأقبّله... ودارت الدنيا، وسقطت سماؤها عليّ وغصت أنا في ظلام دامس...

في تلك اللحظة المشؤومة ماتت الحياة في وجداني.

عدت إلى رشدي بعدما لطمني أحدهم بحفنة ماء بارد فرأيت وجوها منحنية على حالي المزري ومن بينها وجه ذلك الرجل ، ودون أن أشعر وجدت نفسي صارخة باكية وأنا أمسك ذراع الرجل بقوة كأني أمسك بطرف حبل سينتشلني من قاع بئر، وصحت أخاطبه وحده :

ـ أبي... مات أبي يا سيدي...

شعر الرجل بالإحراج الشديد فاقتلع يدي من ذراعه ونفرني ثم اختفى وسط الزحام... وشعرت لحظتها بالموت مرتين.

أدخلـوا جثة أبي إلى الجامع ولحقت بهـم كأني ألحق بعباد افتكوا مني دنياي، وتكوّرت على أبي الميّت أبكيه وأبكي نفسـي التي فقدت السند الوحيد، ولم أدر كم مضى من الوقت حين شعرت بيد تحط على كتفي بلطف فالتفت إلى صاحبها فإذا به رجل متوسـط العمر يلبس "بلـوزة " رمادية فضفاضة، وهممت في لحظة يأس أن أنهره لكنه سارعني بالقول :

ـ سيدي ينتظرك قرب جامع حمودة باشا.

لم أنتظر زيادة في الإيضاح، فقد أدركت القصد تلقائيا ودون سـؤال، ونسـيت أني في حالة حزن ومشـيت وراء الغريب لأني عرفت أن الرجل صاحب الطربوش المجيدي هو الذي ينتظرني، وهو الذي أرسـل صاحبه هذا أو خادمه أو لا أدري من يكون، لكي ألحق به.

وأمام جامع حمودة باشـا رأيت حبيبي... كان يتحـدث إلى صاحب "البلوزة" الرمادية الذي جاءني منذ حين فاقتربت منهما بانكسـار وقد شعرت أني سأدخل دنيا أخرى، وسمعت الرجل يقول لي أو يهمس لي :

ـ اتبعيني عن بعد...

سـبقني، وتركته يفعل وأنا واقفة أقيس المسـافة بيني وبينه، وكدت أعود على أعقابي وأعدل عن هذه المغامرة، لكني تبعته حتى وصل إلى دار ووقف هنيهة أمام بابها الكبير كأنه ينتظر وصولي ثم دفع بفردة باب صغير يتسع لمرور شخص واحد، ودلفت وراءه، ووجدت نفسي في السقيفة وجها لوجه مع صاحبي وشعرت بالرهبة وبمشاعر أخرى... بل قل بآلاف المشاعر المبهمة، وسمعته يقول بأسف :

ـ البركـة فيك... لا تحزني كثيرا... لقد كلّفت سـي عبد العزيز بالقيام باللازم لدفن المرحوم والدك... أما أنت فستقيمين هنا... معنا.

***

عشت عشر سنوات في تلك الدار مع زوجته السمينة جدا والجميلة أيضا، كانت امـرأة دمثة الأخلاق وطيبة للغاية... عاملتني معاملـة الأم لابنتها، ربما يعود ذلك

لكونها لم تنجب أطفالا، والغريب في الأمر أنها لم تغر مني... ولم أشعر أنا بغيرتها إلا لماما، وكان السيد قليل الحضور فلا يعود إلا عند الفطور وفي المساء، وكانت الدار تبدو لنا كلنا خالية وموحشة بدون وجوده رغم أننا كنا في المجموع سبعة أشخاص... الزوجة وأربع خادمات ووصيف وأنا.

ولم يمت حبي لذلك الرجل بل كان يزيد يوما بعد يوم ولم يحاول هو أن يستغل ضعفي أو يوظف فضائله عليّ لبلوغ مأرب رغم أن الفرص كانت مواتية وسانحة في بعض الأحيان. وكنت أترقب أن يسعفني القدر بالوصال من حبيبي...

وتمّ لي ذلك بعد ستّة أشهر من موت زوجته، وأصبحت سيّدة الدار، ونعمت بحبّي، لكن القدر أراد أن يذكرني ببداية حياتي التعسة، فمات زوجي بعد سنة فقط من السعادة الكاملة.

وكانت وحدتي أكبر من الدار التي أصبحت داري وملك يميني فلم أطق أن أدفن شبابي وحوّلت وجهة حياتي... وأصبحت عشيقة.

***

عشر سنوات لم أخرج فيها من الدار الكبيرة إلا للذهاب مع السيدة إلى الحمام في الكروسة أو لزيارة أقارب لها، وكدت أنسى الشارع، وكان الحنين في بعض الأحيان يدفعني إلى محاولة الخروج والذهاب إلى جامع الزيتونة لأرى من "احتل" مكاني ومكان أبي في المدرج، ولم أخرج وحدي إطلاقا، فحتى المرة الوحيدة التي سمح لي فيها السيد بالخروج دون رفقة السيدة كانت لزيارة قبر أبي في الزلاج وقد رافقني "عبد العزيز" في الكروسة وبقي يترقبني عن بعد حتى انتهيت من قراءة الفاتحة وعاد بي رأسا إلى الدار، ومن يومها صار عبد العزيز يرافقني كل يوم خميس إلى مقبرة الزلاج لأترحم على روحين، روح والدي وروح زوجي...

وذات يوم طرقت بابي عجوز لم أعرفها من قبل ولم تكن حاولت في الماضي الاتصال بأهل الدار، ودفعتني الوحدة والفضول إلى قبولها والاستماع إليها وعرضت عليّ عرضا مغريا وهو الزواج من رجل ينتمي إلى عائلة كبيرة تتمتع بالجاه والمال فلم أقبل في بادئ الأمر لكن مع مرور الأيام وإلحاح العجوز بالزيارات والمغريات

الـتي كان يرسـلها الرجل معها قبلـت في النهاية وقد دفعـني إلى ذلك، الفضول والوحدة... والحرمان.

وكانـت البداية، فقد غمرني الرجل بالهدايا النفيسـة وأصبح يتردّد عليّ كثيرا فآنس وحدتي وشـغل حياتي واسـتطاع أن يجرني إلى هواياته من شـرب وسـهر وملـذات كيفيـة وجسـدية وكنت أعرف في قرارة نفسـي أن الـزواج منه أصبح مستحيلا، ولكني كنت راضية وكنت استمتع بالحرية في التعبير عما كان مخزونا في جسدي من طاقات طوال سنوات الحبس الذهبي.

أصبحت داري ملتقًى ليليا لبعض أعيان المدينة الباحثين عن جنتهم المفقودة في ديارهم وفي مخادعهم، وعرفت ما معنى أن تصبح المرأة ملكة دون تاج، لأني رأيت شـخصيات مقربة من السرايا يركعون أمام مخدعي ويطلبون ودّي ورضاي... إلى أن انتهى كل ذلك ذات ليلة.

وكانت ليلة تحوّل فيها مجرى حياتي...

فقد جاءني صديق نديم يطلب مني السماح له بتقديم ضيف جديد :

- مسيو "روجـــي"

وسارع مسيو روجي إلى يدي وقبّلها بكل لطف وقال لي كلاما بدا لي رقيقا... ولم أفهم منه شـيئا فقد كان يتحدث بالفرنسـية وكان صديقي يترجم لي ما يقوله المسيو وأنا غارقة في تأمل هذا "الجنتلمان" الفرنسي الذي سحرني من أول نظرة.

جـاء المسـيو روجي إلى تونس في مهمة لمدة أسـبوع فبقي معي سـنة كاملة، استطاع فيها أن يستولي على قلبي وكياني حتى تفرغت له تماما... وخلت داري من ضيوف الليل، وانطفأت الأضواء لتحلّ محلها أضواء الشموع الحميمة، وران الصمت بعد ليالي الصخب وأصبح سهري يقتصر على شخص واحد... وهو المسيو روجي... وانتقلنا بالسـكنى إلى المرسـى وأصبحت أتكلم الفرنسية حتى أتقنتها تقريبا وبدأ الاستعداد للرحيل.

رحلت إلى باريس وعشت في شبه قصر... وأصبحت مدام "روجي ش..." وكان ذلك منذ أربعين سنة تقريبا ورزقت بطفلة تعيش اليوم في الكندا مع زوجها وطفليها.

أما زوجي فقد توفيّ منذ عشرين سنة ولم يبق لي من أصدقاء أيام زمان في تونس إلا شخص واحد هو عبد العزيز الذي انتظره الآن في بهو هذا النزل الفاخر.

***

قصّت عليّ قصتها هذه بفرنسية باريسية وهي تترشّف قهوتها الثالثة وتدخن سيجارة من النوع الرفيع وكان لقائي بها صدفة في بهو النزل عندما قدمها لي صديق عائد من فرنسا كان تعرف عليها في الطائرة.

وجاء عبد العزيز وانحنى يقبّل ظهر يدها ويقول لها أن السيارة تنتظرها أمام النزل.

ـ إلى أين تريدين الذهاب الآن يا سيدتي ؟

قال لها هذه الجملة وهو يساعدها على النهوض من الأريكة الوثيرة فردّت عليه بنبرة عتاب :

ـ أنسيت العادة يا عبد العزيز... إلى مقبرة الزلاج طبعا.

الْكَرُّوسَــــــــــــــةْ

الدنيــا ربيع وحومة باب الخضراء تعجّ بحركــة لا تهدأ إلا قبيل الغروب، فقد تجمعت في الســاحة العديد من العربات الفلاحية القادمة من أريانة ومن ســكرة وحتى من ســواني قمــرت، واندفع أصحابها لإفراغ حمولتهــا من خضر وغلال قبــل أن ينصرفوا إما إلى المقاهــي أو إلى بعض الحانات حيث يجتمعون مع بعضهم ويختلطون ببعض سواق العربات أو الكراريس من مالطيين ويهود.

كانت الحومة في ذلك اليوم على غير عادتها، إذ احتشد فيها جمع كبير من أهلها ومن تجارها وباعتهــا المتجولين وحتى بعض الأهالي الذين قدموا من داخل المدينة لحضــور الحدث الكبير. فقد اكتملت أشــغال بناء باب الخضراء الجديد بعد تهديم الباب القديم الذي لم يعد يســع حركة العربات والكراريس التي كانت تغدو منه وتروح إلى أطراف المدينة لتنقل السلع والركاب، وكانت الحركة قد تعطلت بالحومة مدة أشهر بسبب الأشغال وهاهي اليوم تتعطّل أكثر من كثرة الوافدين لحضور حفل الإفتتاح الرسمي للبابين الشاهقين اللذين حلاّ محلّ الباب القديم.

كان "لوســيان بياضــة" واقفا مع جملة الواقفين ينظــر إلى جموع الفضوليين ويســتمع إلى أحاديثهم وهم يعلّقون علــى هذا الإنجاز الكبير الذي قامت به دولة الحماية الفرنســية بتونس بغية تحســين وجه البلاد، فمنهم من كان يتحسّــر على باب الخضراء القديم وينتقد هذا البناء الذي لا يمكن أن يحوي بابا خشبيا يغلق في

الليل كما جرت العادة ومنظره هذا لا يتماشى مع السّور القديم ومع روح المدينة، ومنهم من استحسن هذا التطور الذي أعطى لساحة باب الخضراء وجها جديدا ونمطا يتماشى مع طبيعة سكان الحي من إيطاليين ومالطيين وفرنسيين ويهود انتقلوا من بؤس الحارة إلى هذا الحي الجديد.

ـ لوسيان... ماذا تفعل هنا ؟

استدار لوسيان نحو مصدر الصوت فإذا به وجها لوجه مع صديقه المالطي فقال :

ـ لماذا تتعجّب يا نينو... هل تريدني أن أبقى محبوسا طول الدّهر في مخزن "الكرارس" ولا أخرج منه حتى لمشاهدة حفل افتتاح هذا الباب الرائع؟

ـ ولمن تترك مخزنك يا لوسيان. إنّ صبيّك غير قادر على التفاهم مع...

ولم يكمل نينو جملته بل اقترب من لوسيان وهمس له بكلمات مقتضبة جعلت الرّجل يقفز من مكانه ويشقّ صفوف الحاضرين ويتوجّه جريا إلى مخزنه القريب من كنيسة باب الخضراء.

"لوسيان بياضة" هو صاحب مخزن كبير لصنع الكراريس على مختلف أشكالها وقد عرف ببراعته في هذه الصناعة، لذلك كان مشغله قبلة الأعيان الرّاغبين في اقتناء وسيلة النقل الجديدة التي كانت مقتصرة فقط على أهل السرايا وعلى الوزراء وبعض الوجهاء.

كان لوسيان رغم كثرة الطلبيات التي يحتويها دفتره لايريد الإستعانة بعمال مثلما يفعل زملاؤه بحومة باب الخضراء بل اقتصر طوال حياته المهنية على مساعده العجوز "آرماندو" ثم انتدب في الآونة الأخيرة صبيّا أظهر بعض الفطنة والذكاء ورغبة في تعلم الصنعة.

كان لوسيان يوزع معظم وقته في تحويل خشب عادي إلى أجزاء متقنة تصير فيما بعد هيكلا يقع تجميعه بقطع حديدية يطوّعها بنفسه في فرن المشغل، ثم عند نهاية هذه الأعمال التي تعتبر ثقيلة يتحوّل إلى صناعة رقيقة تتطلب مزيدا من الدقة

والحرفية والذوق وهي خياطة الكسوة التي يختارها عادة على ذوق الحريف ويحرص حتى على تزاوج لون السّتائر مع اللون الطاغي على داخل الكروسة وعلى هيئتها الخارجية من بلور ومقابض أبواب وحتى لون عجلاتها... وباختصار كل ما يتعلّق بالكروسة من أولها إلى آخرها.

***

وصل لوسيان مخزنه وهو واجف القلب من وقع المفاجأة السعيدة، فهو متعود بالكبار وبالأعيان، لكن زيارة هذا الرجل بذاته قد أربكته بعض الشيء لأنه عوّده في السابق على إرسال أحد أعوانه كلما احتاج إلى خدمة دون أن يكلّف نفسه مشقة الحضور لشراء كروسة أو إصلاح أخرى.

ـ سيدي الكبير... مرحبا... مرحبا... يا يوم السّعد... شرّفتني يا سيدي وشرّفت محلّي المتواضع... تفضل تفضل... إلى مكتبي...

نزل الرجل الأنيق جدّا من كروسة فاخرة وضعها لوسيان في صدر المخزن للعرض في انتظار حضور صاحبها الذي سافر في مهمّة إلى فرنسا.

تكلم الرجل وهو مازال يتفحّص الكروسة دون أن ينظر إلى لوسيان :

ـ هل تستطيع صنع كروسة أحسن من هذه وأصغر بقليل؟

ـ سيدي... لقد شاب شعري في صناعة الكرارس الفاخرة وكما تعلم لا يوجد لوسيان بياضة في الحاضرة غير عبدكم هذا... فكيف تشكّ في مقدرتي على إرضاء أذواق أسيادي.

ابتسم الرجل ابتسامة مقتضبة وأشار بعصاه الفاخرة إلى حالة المخزن :

ـ عجيب أمرك يا لوسيان، كيف تستطيع إخراج مثل هذه التّحفة من هذا المكان الذي يذكّرني بمربض حيوانات ؟

ـ هذا المكان الذي لا يليق بحضرتكم يا سيدي هو مشغلي المفضّل، وأما التّحف التي تتحدّث عنها فإنّ يدي هذه هي التي تصنعها... وعقلي هذا، هو الذي يتخيلها ويرسمها.

ـ سـنيور لوسيان... احضر لنا مثالا لكروسة لم يشاهد الناس مثلها في تونس... أريدها مثل كرارس أعيان روما وباريس.

وأدخل الرجل يده إلى جيبه لإعطاء تسبقة إلى لوسيان لكن هذا الأخير قفز من مكانه وأمسك بيد الرجل في حركة أنيقة:

ـ كلا يا سيدنا، فالناس معادن. وأنا في الخدمة ولن أقبل أيّ فرنك قبل أن تتسلم الكروسة... إن حضورك بنفسك إلى هنا سيكون حافزا لي لأرسم تحفة لم يصنع مثيل لها لا طلياني ولا فرانساوي... أرسل لي فقط يا سيدنا أحد رجالك ليأخذ المثال.

ـ لا يا لوسيان... أريد أن تحضر أنت بنفسك إلى المرسى... ربما لا يعجبني المثال، وربما أزيد عليه أو أضيف له بعض الجزئيات.

ـ معك حق يا سيدنا... سأكون عندك بعد غد على أقصى تقدير... اطمئن.

***

بعدما خرج الزائر، شعر لوسيان أنه أصبح فعلا من أعيان الصنايعية بما أنّ كبيرا من كبار القوم قد تواضع وجاء بنفسه إلى باب الخضراء ودخل هذا المخزن الكئيب وشـرّفه بحضوره وبالحديث إليه وهو الذي لا يتحدّث حسبما يعلم إلا مع الوزراء وكبار الفرنسـيين، ولا يذهب إلا إلى السرايا أو إلى الإقامة العامة وديار كبار التجار الأوروبيين وديار القناصل وغيرهم من علية القوم.

فرك لوسيان يديه فرحا لأن الصّفقة ستزيده شهرة ومالا، فبادر بالبحث في أوراقه عن رسوم يستلهم منها خطوط الكروسة الجديدة، لكنه توقّف فجأة واستدار ناحية باب المخزن كأنه يستحضر شيئا، وساءل نفسه :

ـ لكن... لماذا الكروسة الثانية، هل استغنى عن الأولى ؟

تذكّر أن الرجل طلب منه في العام الفارط عن طريق وكيله أن يصنع له كروسة خصّيصا له تكلّف إنجازها مالا كثيرا. ولما عجز عن الإجابة طرد الفكرة من رأسه

متعلـــلا أن الأمـــر لا يهمه، لذلك اتجه إلى الركن الـــذي جعله مكتبا وانكب على أوراقه القديمة استعدادا لعمله الجديد.

***

خرج لوســـيان بياضة بعد يومين برســـوم لأمثلة عديدة من أنواع "الكرارس" وجمعها في محفظته الجلدية القديمة وهو يشعر بالاعتزاز لما تفتق عليه خياله الذكي، وركب عربته الصغيرة متوجها إلى المرســـى وكانت ســـاعة جيبه الثقيلة تشـــير إلى التاسعة صباحا.

عندما وصل أمام بـــاب الحديقة الكبير اعترضه البواب وطلب منه الانتظار لأن صاحـــب الفيـــلا مازال نائما ولا يمكن إزعاجه قبل الســـاعة الحادية عشـــرة، وكاد لوسيان ينفجر غضبا لأنه لم يتعود إضاعة الوقت في الإنتظار، لكن كبر المهمّة التي جاء من أجلها جعله يخفي غيظه ويختار مكانا ظليلا من الحديقة في انتظار استفاقة السيد.

حينما دقت الساعة الموعودة أتاه خادم في لباس أنيق وقاده إلى شرفة الفيلا حيث وجد الرجل يترشّف قهوته الصباحية ويطالع جريدة فرنسية.

ـ عفوا لوســـيان، تركتك تنتظر، لكن لا بأس، كل شـــيء بأوانه وبقيمته، هات أرني ما عندك.

نشر لوسيان أوراقه على الطاولة الصغيرة بعدما نحّى طبق فطور الصباح وراح يشـــرح الخطوط والزوايا وأسبابها الفنية ويسهب في التفسيرات والتعليلات والرجل يستمع إليه بكل انتباه، وفي آخر الأمراختار مثالا أعجبه فقال :

ـ لا تهمّني التكلفة وإنما أطلب منك كروســـة في منتهى الأناقة والفخامة... إنها هدية يا لوسيان... خذ، هذه التسبقة، وابدأ العمل من اليوم.

***

مرّ شهر على لوسيان بياضة وهو منكبّ على صنع الكروسة الفريدة وقد وظّف كل طاقاتـه الإبداعية والفنية لكي يخرج بشـيء نادر وجميل خصوصا أنّ التّحفة سـتكون لامرأة. ذلك أن هذه "العروسـة" في شـكلها وفي هيئتها وفي لون كسوتها وسـتائرها لن تكون سـوى لامرأة ولا يحتاج الأمر لسؤال أو تخمين، فقد عرف عن ذلك الرجل ولعه بالنسـاء وبالإنفاق عليهن دون حسـاب، لذلك تفنّن لوسيان في الزينة وفي الزركشة كأنه يعدّ كروسة عرس.

حلّ اليوم الموعود لتسليم التّحفة إلى صاحبها، ووقف لوسيان ينظر إلى ما صنعت يداه وقد امتلأت نفسه إعجابا وفخرا.

ـ أعجتبك الكروسة يا لوسيان... أليس كذلك ؟

فوجئ لوسـيان بهذه الملاحظة، واسـتدار نحو مصدر الصوت فإذا به في حضرة شـاب اعتقد في أول الأمر أنه زبون جديد يروم هو الآخر شراء كروسة، فتقدم منه وعلى شفتيه ابتسامة تجارية واسعة.

ـ آه... أنت محظوظ يا سـيدي... فأنت أول من يرى هذه الكروسـة في شـكلها النهائي وربما تكون أنت الأخير لأنها ستنتقل من هنا رأسا إلى صاحبها... ومن يدري ربما... نراها ذات يوم في شوارع تونس أو إنها سترحل إلى مكان مجهول.

تقدّم الغريب من لوسـيان دون أن يمدّ له يـد المصافحة ثم همس له وقد ركّز بصره على الكروسة الجديدة التي برقت من الزينة ومن حسن الطلاء:

ـ هل تعلم يا لوسيان بياضة أنك صنعت تابوتا متحركا ؟

كاد لوسـيان يختنق من وقع هذه الكلمات، فقد تغيرت سحنته واحتقن وجهه وكاد يصيـح في وجه الشـاب الثّقيل وتمنى لو يصفعه صفعـة تطير به إلى خارج المخزن، لكن أصول المعاملة، وفروض احترام الزبائن مهما كانت مشـاربهم، جعلته يحوّل غضبه إلى علامات دهشة ممزوجة بابتسامة صفراء.

ـ لماذا يا سيدي، ما معنى هذا الكلام ؟ هل...

وأشار له الشاب بيده حتى لا يواصل الكلام ثم قال بنبرة غريبة :

ـ أردت يـا لوسـيان أن أقول لك هذا الكلام لتتذكّـره جيّدا، فربما يصلح لك في يوم من الأيام... ولن أخبر به سـواك... إنك يا هذا قد ساهمت دون أن تدري في تحطيم حياتي.

لم يزد الشاب على هذا القول لفظا واحدا واستدار متّجها إلى الباب بعدما ألقى على لوسيان نظرة أغرب من كلامه تركت المسكين يعاني اعتمالات انقباض شديد من هذا الشخص ومن شكله ومن زيارته، وأحسّ بانهيار ينتابه فجأة، فجلس على أول شيء يقوم مقام كرسي ثم شخّص ببصره إلى الكروسة الجامدة إلى أن اكتشف انّه ينظر إليها نظرة غريبة امتزجت بالخوف وبالرهبة.

في الغد جاءه مبعوث صاحب الكروسـة ونقده ثمنا سـخيا ثم ربط إلى المركبة الجديدة الحصانين الواقفين خارج المحل.

خرجت الكروسـة مـن المخزن كأنّها عروس، ووقف لوسـيان ينظر إليها وهي تتهادى حتى غابت بين أشجار الطريق المؤدية إلى أريانة.

شـعر لوسـيان أخيرا بالرّاحة، راحة كبيرة كأنّه تخلّص من كابوس مخيف، فقد بقي كلام ذلك الشاب الغريب يرنّ في أذنيه ويضرب عقله بعنف ؛ ثم قام بحركة من يده لطرد الأفكار السـوداء من رأسـه، ودخل محلّه وتهالك على كرسـيه طلبا للراحة وللنسيان.

***

"لويزا" الطّليانة... يهودية من يهوديات حومة "القْرَانَةْ"، جميلة جمالا متوحشا، جمالهـا الصّارخ جعلها تعيش عيشـة الطيش بكثير من الـذّكاء، فهي تحبّ حياة الترف والبذخ والمجون رغم أنها من عائلة غنية تملك العقارات في تونس وتتاجر في كل شـيء. لكن لويزا لا ترغب في الحياة الهادئة ولا في التقيّد بأخلاقيات مجتمعها الصغير المنغلق على نفسـه، ولا تريـد أن تتزوج وتركن إلى رجل واحد، ربما كان ذلك بسـبب كثرة الرجال الذين سعوا إليها وبذلوا من أجلها الأموال والهدايا طلبا لرضاها... لكن لا المال ولا هؤلاء الشـبان والرجال عرفوا كيف يخضعونها، وكانت

تعتقد دوما أنها خلقت لتعيش مرفرفة أبدا حرّة طليقة، ولن يقدر أي مخلوق على وضعها في القفص حتى لو كان ذلك القفص من ذهب.

وجاء اليوم الذي كذبت فيه على نفسها... اليوم الذي عرفت فيه الحب، وعرفت أنها ستخرج عن تقاليد دينها وملّتها و أنها ستغضب العائلة والأصدقاء ومن يدور في فلكهم، ذلك اليوم الذي سقطت فيه بكل بساطة في حب ذلك السيّد الوقور الذي يسكن المرسى والذي يخالط الأوساط الراقية بمختلف مللها.

بدأ الحب محتشما، ثم أصبح عنيفا ولم يعد يحتمل البقاء في السرية وأخذت أخباره تتسرّب حتى أضحى واضحا وضوح الشمس، وكان ذاك يوم أهدى "المرساوي" لصاحبته لويزا تلك الكروسة الفاخرة التي صنعها لوسيان بياضة خصّيصا لهذا الحدث دون أن يدري.

***

"مارسال" هو ذلك الشاب الوسيم الذي دخل على لوسيان بياضة وهمس في أذنه بتلك الكلمات التي كان وقعها شديدا على الرجل.

مارسال هذا من يهود الحارة، يحب أن يتطلّع إلى ما فوق هامّته رغم فقره وخصاصته، لكنه اعتقد بفضل وسامته الظاهرة أنه قادر على إخضاع قلوب الحسان، خصوصا بعد خوضه بعض التجارب الناجحة مع بعض الأرامل الغنيات من مجتمع باب البحر وما حوله. لكنه لم يقرأ هو الآخر حسابا للحب فوقع في غرام لويزا، وسعى إليها دون مواربة حتى استطاع الوصول إليها بعدما جرفه تيهه إلى القيام بالمستحيل للقياها.

ويوم إلتقاها فهم أنه لن يصلها أبدا، ويستحيل عليه ضمها إلى صدره بسبب تلك الطريقة الخشنة والجارحة التي التقته بها، وعرف ساعتها أنه لن يتواجد أبدا في قلبها، ولن تعتبره موجودا إطلاقا، وبالتالي لا يمكن أن يكون في طريقها.

ومع ذلك قرّر أن يكون موجودا حيث تكون حبيبة القلب سواء رأته أو لم تره، فذلك لا يهمّ... المهمّ أن يراها ويتمتّع عن بعد بجمالها ويستأنس بسعادتها التي تنتشر حولها مع ضحكاتها ومرحها.

ولما أصبحت لويزا تتنقل في الكروسة الفخمة التي أهداها إياها حبيبها "المرساوي" قرّر مارسال أن يشتري حصانا لكي يعتليه ويتبع لويزا حتى في تنزّهاتها البعيدة، وفي خلواتها الشاعرية مع حبيبها.

رآها ذات يوم في غابة أريانة... لقد لطمته المفاجأة لطمة قوية رغم معرفته الجيّدة بسيرة لويزا، لكن ذلك اليوم كان أعتى عليه من كل مآسي الدنيا.

كانت لويزا مع المرساوي... تبعها مارسال حتى وصلا إلى مكان وارف الظلال بعيدا عن العيون... رآهما وهما يتطارحان الغرام، رآهما وهما يحترقان في نار الغرام... فاحترق قلبه وعقله، وبكى يومها بصمت، وعندما عاد ليلا إلى داره بكى بحرقة وبصوت مرتفع ثم نام مقهورا منهوكا.

***

ترك مرسال شعره يطول ولحيته تنمو حتى أصبح يشبه "رِبِّي" الحارة، وتوجّه ذات صباح إلى حيث تسكن لويزا، واختلى بسائق كروستها وهمس له بأشياء عديدة أقنعت الرجل بترك الخدمة كامل ذلك اليوم ، ثم نقده مبلغا محترما وتسلم منه مهمّة قيادة الكروسة بعدما سوّى من مظهره ومن كسوته التي بدت جديدة.

لم تتعرف عليه لويزا عندما همّت بركوب الكروسة واكتفت بإجابته المقتضبة :

ـ سنيورة... لقد حللت اليوم محلّ ابن عمي الذي أقعده مرض مفاجئ. أرجو أن أكون في المستوى المأمول...

لم يستمع مارسال إلى أمر لويزا بإيصالها إلى محلّ بيع الملابس الرّاقية في شارع "جول فيري" بل صاح في الحصانين.

انطلقت الكروسة في طريق غير الطريق المعتادة... وعرجت إلى الخلاء ثم اتجهت إلى غابة أريانة وهي تعلو وتنتفض من شدّة السّرعة، فقد كان مارسال ينهال على الحصانين بالسّوط ويصيح فيهما كأنه قائد عربة سباق في مضمار مسرح روماني.

صاحت لويزا بفزع وأمرته بالتوقف حالا والعودة بها من حيث أخذها وإلا...

ولم يسمع مارسال، بل كان يعبّر عن جنونه بصفير السّوط الذي ألهب ظهري الحصانين، وكادت الكروسة أن تنقلب وتتناثر قطعها لكنها تماسكت إلى آخر المطاف.

وصل الرّكب الجنوني إلى ذلك المكان الذي تطارحت فيه لويزا الغرام لأيام مع صاحبها المرساوي، وقفز مارسال بخفة، وفتح باب الكروسة وجذب لويزا التي أغمي عليها فسقطت أرضا فسارع إلى حملها على ذراعيه لكنها استفاقت وأخذت تتخبّط وتحاول الإنفلات من تلك الضّمة القسرية فرماها مارسال إلى جذع شجرة كأنه يرمي دمية كرهها فجأة، وصاحت من الألم ونظرت إلى مارسال نظرة قاتلة فسارع إليها وأوثقها بحبل أخرجه من جيبه، ووقف ينظر إليها وهي تصرخ وتستنجد وتحاول فكّ قيدها، ثم تقدم منها وقال لها وعيناه تحملان كل ثقل الحب والكراهية معا وشتى أنواع المشاعر الممزوجة باللوعة وبالألم :

ـ انظري جيّدا في وجهي يا لويزا... انظري... هل عرفتني... أنا مارسال المجنون بحبك... مارسال الذي...

وبصقت لويزا في وجهه بصقة وضعت فيها كل شحنات الكره والحقد ثم أشاحت عنه بوجهها.

طار صواب مارسال فقد كان يعتقد أنها سوف تتوسّل إليه وستستعطفه، لكنها تجاهلته مرة أخرى حتى وهي في أوضع الحالات.

جذبها من ثوبها حتّى تمزّق، وكأنّ جنونا أمتلكه فأخذ يمزّق كل قطعة تقع عليها يده وبذلك جرّدها من كل ثيابها وتركها عارية لا تكسوها إلا شرائط.

ثم في اندفاع وحشي كاسر تمكّن منها قسرا رغم كل مقاومتها، وحينما شعر أنه يكاد ينفجر، استلّ سكينه وغرسه في قلب لويزا... وبقي لحظة ينتظر ارتخاء الجسد الساخن حتى سقط رأس المسكينة إلى الوراء، وحينها تراجع مارسال أمام منظر الموت ؛ ثم انطلق بسرعة نحو الأشجار وعاد بعد برهة بحزمة من الحطب فوضعها تحت الكروسة، ثم ربط خرق ثوب لويزا إلى بعضها حتى كوّن منها شريطا علّقه حول الكروسة، كأنه شريط فرح، ثم سرّح الحصانين وأشعل النار في الحطب،

وجلس قرب جثة لويزا ينظر إلى النار وهي تنمو وتأكل الحطب ثم ترتفع ألسنتها إلى أن تمكّنت من أسفل الكروسة.

ارتفع لهب ملوّن كاسح، ومارسال ينظر إليه بصمت وقد جحظت عيناه وغاب عقله في رحلة مع رقصات النار التي تعاظمت وتطاير شررها إلى ذوائب الأشجار.

ولم يترك مارسال المكان إلاّ عندما أصبحت الكروسة هيكلا حديديا وكوما من الرماد، ثم نزع سترته وانحنى على جسد لويزا فغطاه برفق وألقى على ضحيته نظرة طويلة. ثم مشى في خطوات وئيدة ومتثاقلة حتى اختفى بين الأشجار.

الكرّوسة : عربة فاخرة يجرها حصان واحد أو أكثر حسب حجمها وقد كانت وسيلة نقل البايات والأمراء والأعيان وهي كلمة معربة عن carrosse.

كَـــانَ يُشْبِهُـــكَ

جلســت والفرحة بعينيها تســتقرئ أفــكاري الخافية وتحــاول معرفة ما أريد، وتذكــرت أغنية عبد الحليم حافظ "قارئة الفنجان" مع فارق بســيط وهو أنّ هذه المرأة التي أجلس أمامها ليست قارئة فناجين ولا "دقازة" وإنما امرأة عادية اجتماعيا، لكنها عظيمة شحما ولحما، فقد جلست على أريكة كبيرة لم يظهر منها شيء لأنها امتلأت بجســم هذه المرأة التي طغت عليها السمنة ولم يعد يميِّزها عن سائر البشر إلا وجهها الحلو، فالتناقض صارخ بين الجسم الهائل والوجه الجميل الظريف، وهذا هو الطّريف فيها، ولم أســألها : هل أنها كانت هكذا في شــبابها، أو أن هذه العظمة اكتسبتها بفعل العيش الرغد والحياة الناعمة التي مازالت أثارها ظاهرة، سواء على وجهها أو في معصميها وأصابعها، فأساور الذهب والخواتم الغريبة الشَكل تدلُ على أنها كانت تنعم بأسباب التّرف وربما مازالت إلى اليوم.

وكأنّ المرأة قرأت أفكاري، فدفعت بطبق الشــاي والحلويات نحوي، ثم أخذت "كعكة ورقة" ودفعتها إلى فمها وقالت وهي تمضغ بكل أناقة :

ـ كنت مثل العصا... مستقيمة الجسم، لكني بارزة حيث يجب البروز... كنت جميلة وجذّابة "أطير من الكف" عذّبت قلوبا وتشــفيت من بعض الرجال... رجال لا كرجال اليــوم "ببــوش بومصَة"، وعندما أقــول رجلا، أتذكر الطول والعــرض والرجولة وكل مقوماتها التي لم نعد نجدها اليوم إلا في قلة قليلة من رجال هذا الزمن المريض.

صمتت محدثتي، وأخذت "برج بقلاوة" غيّبته في فمها الشّره وأردفته بجرعة من الشاي الأخضر المنعنع ثم نظرت إليّ نظرة أعجبتني لأني أحسست فيها بالغنج وبالدلال وبعبير من ماض لم أعشه، وقالت لي وهي تمتصُّ إبهامها من عسل البقلاوة:

ـ لو كنت يا شقي من زماني .. لو رأيتك عندما كنت في أوج عزي لعشقتك ولعذبتك عذابا عذبا... لأن لك نظرات عاشق لم يكتشف بعد العشق الحقيقي، فنظراتك تعرف كلام الحواس لكن، ثق أني لن أكون معذبتك مثلما كنت معذبة الكثيرين، لأنك وبكل بساطة استطعت أن تنفذ إلى قلبي دون أن تجري ورائي... ولا تركع أمامي... وأنا لا أريد أن ينفذ أحد إلى قلبي... لقد كرهت أن أقع أنا في الحب ... لقد تعوّدت على حب الآخرين لي... وعلى جريهم ورائي. لقد كنت أستمتع بعذابهم، لكني لم استطع تحمُّل عذابي... لقد أحببت مرة واحدة في حياتي... فقط مرة واحدة... ورغم ما كان عندي، وما كنت استمتع به من جمال وجاه... فقد فشلت في حبي... فشلت فشلا ذريعا، ومازال جرحي إلى اليوم حيّا غائرا... وها أنك نزلت عليَ من السماء لتعيد إذكاء جراحي وتطوَّح بي إلى الماضي الذي نسيته، أو هكذا خيَّل إليَ...

صمتت وهي تتنهّد تنهيدة الحسرة، وراحت بنظراتها إلى بعيد كأنها تعيد ماضيها وتفرشه على بساط الحاضر، ثم فاجأتني بسؤال :

ـ ماذا تدخّن ؟

ـ " مارس آنتار"...

ـ لا أرغب في هذا النوع من التّبن، حتى دخانكم يا أولاد هذا الوقت لم يعد له طعم ولا رائحة، لكن لا بأس... أشعل لي سيقارة.

قمت من موضعي وقدّمت لها سيقارة بطريقة تشريفاتية وأشعلتها لها بولاعة الصالون الفاخرة فوضعت يديها المكتنزتين على يديّ وأطبقت عليهما قليلا وهي تأخذ النفس الأول... ثم نظرت إليّ نظرة جمعت فيها كل ما تعرفه من شقاوة الشباب ونفثت في وجهي دخان النفس الطويل وقالت لي كأنها تهمس :

ـ كان يشبهك... كثيرا... لولا فارق الطول... كان أطول منك.

وتركت يديَ وأشاحت عني بوجهها وقد خيّل إليَ أنَ دمعة عصية أرادت فضح شعورها فحاولت حبسها في مقلتيها الجميلتين.

عدت إلى مكاني في خشـوع، وحسـبت أنها سـتغرق في حزنها وفي ذكرياتها، لكنها ابتسـمت فجأة وضحكت ضحكة رنّانة فأشـرق وجهها إشراقة شمس كانت ظلّلتها غمامة عابرة، وفهمت لحظتها سـرّ قوة شـخصية هذه المرأة وسحرها الخفيَ الذي أطاح بهامات عشاقها، وسألتها:

ـ من يكون هذا الذي كان يشبهني ؟

ـ كان هـو حبيـبي الأوحد... لم أحب قبله... ولم أحـب بعده. كان هو جرحي وألمـي وكان هو الرجل الوحيد الذي لم أصل إليه... رغم كل ما فعلت... إنه الورقة الناقصة في كتاب حياتي.

صمتت لحظة ثم لوّحت بيدها كأنها تبعد شبحا وقالت:

ـ أوف... لماذا أحكي لك كل هذا... إنه ماضيّ أنا... ولا أحب أن أطرح حكايتي على الغرباء ... فالماضي هو ملك لصاحبه، وله الحق في إخفائه أو في الإفصاح عنه لمن يريد... أنا عشت حياة لم تعشها واحدة من جيلك أنت... كنت... أوه... لا بأس... سأقولها... وأنت حرّ في جعلها في الإطار الذي يروق لك...

صمتت لحظة وجذبت نفسـا طويلا من سـيقارتها ثم قالـت والدخان يتزاحم خارجا من فمها :

ـ كنت عشيقة لوزير من وزراء الباي... كنت آخر عشيقاته، وكنت بمثابة زوجته وأخته وأمه وصديقته... وكان هو آخر من عرفتهم من الرجال... ولم أكن كما تراني أنت الآن... أو تخمّن... أعرف أنك تعتقد أني كنت غانية أو جارية أو مومسا... لا... لم أكن كذلك، على الأقل بالنسـبة لي، كنت أعرف ما أريد ومن أريد وماذا أريد، وكنت أضع ذلك في خانة معيّنة لأنه كان في اعتقادي أني امرأة خلقت لأن أعيش حياة اخترتها لنفسي، لقد عشت بشرف... نعم بشرف خاص... شرف أرستقراطي... وكان ذلك قدري وكفى...

ـ حبيبك يا سيدتي الذي كان يشبهني... لماذا لم تصلي إليه، هل كان من جماعة "بافكر في اللي ناسيني وبانسى اللي فاكرني"، كما غنّى عبد الوهاب ؟

ـ لا يا شقي... أنا لست من هؤلاء... قلت لك... إني امرأة أعرف ما أريد وأعرف وقع سحري على الرجال، لكن نكبتي في حبيبي الذي لم يصل إليّ... أو قل إن الأقدار أولا أدري ماذا... هي التي حرمتني منه في لحظة كاسرة...

ـ كيف ذلك يا سيدتي ؟

ـ تعرفت على حبيبي في دار المقيم العام الفرنسي بالمرسى بمناسبة احتفالية "خاصة..." كنت وقتها في عزّ الشباب، أدير الأعناق، وكنت على علاقة بأحدهم، وكان لا يمر يوم دون أن يغدق عليّ الرجل الهدايا والعطايا، لكني لم أكن أميل إليه كثيرا، كانت الحفلة ليلتها في أوجها وكنت اختال بين المدعوين والمدعوات وصاحبي منشغل عني بالحديث إلى أحد الدبلوماسيين، وفجأة رأيته... رأيت حبيبي... لقد أخبرني قلبي لحظتها أنه هو حبيبي ولن يكون بعده حبيب... كان شعورا غريبا لكنه صادق . كان مع امرأة أخرى في مثل سني وفي مثل جمالي... نعم... كأنها أختي في الشَبه... وعصفت بي الغيرة القوية لأول مرة في حياتي... كانت غيرة أشعلت النار في كياني وأعمت بصيرتي حتى أني لم أعد أرى من الحاضرين سوى حبيبي... وتلك المرأة، وقررت أن أفتكه منها وأن يكون لي أنا، وأعملت الفكر والعقل والقلب والحيلة والشيطان أيضا... حتى وصلت إلى حبيبي في آخر السهرة وكلّمته، وقد حسبني مرافقته التي جاء معها من فرط سكره، وكدنا نخرج مع بعض، لكن الأخرى عادت... وعاد صاحبي الأول أيضا فأفسدا عليّ تخطيطي، لكني استطعت معرفة من يكون واستطعت كذلك أن أمرّر له رقم تلفوني.

بقيت انتظره أشهرا وقد خلا عقلي من كل رجل... أفرغت قلبي من كل شعور استعدادا لملئه بطلعة حبيبي...

مضت الأيام وأنا على نار... وكانت صدفة أخرى جمعتني به أخيرا في ليلة صيف، وفي دار أحد الأعيان بمناسبة فرح... ورأيته... ورآني... وكان وحده هذه المرة، وظهر لي أنه تذكرني فأرسل إليّ قبلة خفية رفعتني إلى السماوات السبع حتى أني

أحسست أن الدماء التي تسري في عروقي قد تحوّلت إلى سائل من السعادة، ولم أر لحظتها... سواه... واقتربنا من بعضنا وسمعته يهمس لي :

ـ سوف انتظرك في آخرالسهرة قرب سيارتي "الهوتشكيس" الخضراء.

كادت تلك الليلة أن تكون ليلة عرسي أنا... لا ليلة عرس صاحبنا الذي دعانا... وطفت أقبّل كل من أعرفها ومن لا أعرفها، ورقصت... وفرحت... وسمعت حتى من تقول : لقد زادت هذه المأفونة جنونا على جنونها...

وكان الموعد... وكان الطقس من أجمل ما رأيت .. وكان المنظر الذي صدم عيني من أتعس ما رأيت.

لقد رأيت حبيبي... قرب سيارة "الهوتشكيس" وهو على الأرض ببدلته البيضاء... وجريت نحوه وقد خيّل إليّ أني سأتعثّر في قلبي الذي شعرت به يسقط من موضعه، وعَمِيَ بصري... ولم أدر ما حدث... فقد رأيت بعد برهة جموعا من أهل العرس يلتفُون حول حبيبي... ثم يتقدّم أحدهم من الحلقة فيفسحون له المجال... وفهمت أنه طبيب كان من جملة المدعوين... ورأيته يجسُ نبض حبيبي ثم رقبته... ثم يرفع اليد اليابسة ويضع إصبعه ما بين سبابتها وإبهامها ويتذوَّق ما علق بإصبعه ويقول كلاما نزل على رأسي كالساطور :

ـ "لقد مات من فرط استنشاق النفَة البيضاء".

***

سكتت المرأة وسرحت بنظراتها التي غشتها هذه المرة غلالة من الدموع الرقراقة... وساد الصمت بيننا، ولم أستطع أن أقول أو أن أضيف شيئا فنهضت مودّعا... وربما مواسيا... فتجاهلت يدي الممدودة نحوها وانشغلت بالبحث عن منديلها الأنيق لتمسح دمعتها وقالت لي دون أن تنظر إليّ هذه المرة :

ـ تستطيع أن تعود مرة أخرى لتشرب معي كأس شاي... أريد أن أراك...

ولم أعد.

الرّبـــان الرّاغوصـــي

1784 بداية فصل الصيف...

راغوصيا مدينة عريقة كانت تابعة للأراضي اليوغسلافية من سنة 1403 إلى سنة 1809 وقد كانت عاصمة لجمهورية أرســتقراطية ركزت في معاملاتها مع الخارج على التجارة وكســبت من وراء ذلك أموالا طائلة وقد ربطت علاقات تجارية وثيقة مع الإمبراطورية العثمانية وأرسلت معظم أسطولها التجاري إلى كل الإمارات العثمانية ومنها تونس.

***

خرج "راجوفيك" من داره الكائنة بأحد شــوارع مدينة راغوصيا الأنيقة بعدما ودّع زوجته وســار بتمهل رغم بداية تهاطل أمطار صيفية على مدينة يبدو أنها لا تأبــه بتعاقب الفصول عليها في يوم واحد... واكتفى "راجوفيك" برفع ياقة قميصه ودسّ عنقــه بين كتفيه وأخذ ينظر إلى المارة الهاربين من المطر وعلى شــفتيه طيف ابتسامة وفي مخيلته صورة عزيزة نقشت في قلبه منذ بضعة أشهر.

انعطف إلى أحد الشــوارع وتوجه نحو مقصف دفع بابه الزجاجي المزركش ثم اتجه رأســا إلى ركن به طاولة صغيرة وضعت فوقها مزهرية رفيعة من الكريســتال رشــقت بها وردة حمراء قانية ممشــوقة كأنها قطفت توّا من حديقة غنّاء. وجلس ينتظر...

إيطالي أن حمودة باشا ورجاله يشتغلون بالتجارة الخارجية ويريدون فتح أسواق جديدة كما يرغبون في التعامل مع البلدان التي تحتاج إلى سلعهم ويحتاج الباي إلى منتوجاتها الصناعية والحربية. لذلك عرض اليهودي على راجوفيك فكرة التعامل مع التجار التونسيين العاملين في هذا المجال ووعده بالسعي إلى فتح وكالة بميناء حلق الوادي بواسطة تاجر تونسي لتقبّل البضاعة التي سيستوردها راجوفيك من شمال أوروبا.

وفعلا تجسدت هذه الفكرة، وها هو راجوفيك يحمل البضاعة في طريقه إلى ميناء حلق الوادي بعدما تلقى إشارة من التاجر اليهودي بالموافقة على العرض ووعده بتقبّل مجمل البضاعة هناك والقيام باستضافته وتقديمه إلى تجار تونسيين وربما إلى الوزير يوسف صاحب الطابع الذي اشتهر هو الآخر بتعاطي التجارة الخارجية.

ابتسم راجوفيك وهو يتخيّل نفسه وقد عقد الصفقات وعاد إلى مدينته مملوء الوفاض مُحمَّل بالهدايا إلى حبيبته... ولم يفكر في زوجته... ولا في طفليه فهم بالنسبة له من تحصيل الحاصل وهم عماد أسرته، أما الأخرى مالكة القلب، فهي الحب ذاته، ومن أجلها يسافر ليصبح أغنى مما هو عليه الآن وليجلب لها هدايا من بلاد الشرق.

***

بعد عشرين يوما من بدايتها، أشرفت الرحلة على نهايتها ومرت سفينة راجوفيك بالبحار بسلام فقد كان الجو مواتيا والفصل صيفا. وبدأ حلق الوادي يلوح شيئا فشيئا وبدأت الاستعدادات حثيثة لترسو السفينة بهذا الميناء الصغير.

شعر راجوفيك بإحساس مبهم، فقد كان شعوره غامضا جدا هذا اليوم وكانت الألوان التي يراها أمامه من زرقة السماء والبحر وبياض بعض المباني تجعله يشعر بشيء من الرهبة... والخوف...

لم يعرف لماذا أحسّ بالخوف... فقد تذكّر ما قالته له حبيبته قبل رحيله وها هو صدى صوتها يتردد على مسمعه وهو يستعد للنزول إلى اليابسة...

ـ لا تسافر إلى ذلك البلد... لا تسافر... لا تسافر...

***

تبدّدت الأفكار السوداء التي راودت راجوفيك حين تقدم منه التاجر اليهودي وسلّم عليه بحرارة تجارية مبالغ فيها وقاده إلى مظلة أنيقة تظلل طاولة بيضاء حولها كراسي فارغة صفّفت بانتظام لاستقبال مجموعة من الضيوف.

جلس راجوفيك وقد شعر بحرارة شديدة تلفح وجهه رغم نسيم البحر فامتدت يده إلى كأس عصير الليمون التي قدمها له التاجر اليهودي وكان ينوي شرب جرعة منه للتذوق فقط فإذا به يأتي على محتوى الكأس فقد كان العصير باردا منعشا.

لمّا انتهت المفاهمات التجارية بين راجوفيك واليهودي بوضع اللمسات الأخيرة على اتفاقهما كان قرص الشمس قد شارف المغيب مما أضفى على المكان روعة خاصة دغدغت مشاعر راجوفيك، وجعلت فكره يستحضرصورة حبيبته التي تركها هناك بعيدا في بلاد الثلج.

***

تحركت العربة من حلق الوادي في طريقها إلى تونس وكان التاجر يتحدث طول الطريق عن أعماله وتجارته وفي بعض الأحيان يعطي لراجوفيك نبذة عن الحياة في تونس وعن التجارة بها وعن أهلها وحاكمها وعن آفاق التعامل بينهما وكان راجوفيك يستمع إليه بانتباه وينتظر الوصول إلى المدينة لكي يقوم بجولة استكشافية أولى للتعرف عليها بعدما سمع من هذا اليهودي بعض الحكايات عنها.

كان وصولهما إلى المدينة بعد المغرب بساعة وكان راجوفيك قد شعر بالتعب من رحلة الكروسة ورغب من مرافقه في أن يتمشى قليلا قبل الذهاب إلى دار مضيّفه. ولبّى اليهودي رغبته ونزلا من العربة قرب ربض باب سويقة حيث مازالت الحركة في أوجها رغم تقدم الظلام، واختلطا بأهل المكان مما أشعر راجوفيك بالسعادة لوجوده في هذا الإطار، فقد رأى بعض المارة من كبار وصغار يسلمون عليه ويحيّونه كأنهم يعرفونه من قبل، وشعر بالطمأنينة بعد شعور الغربة الذي انتابه وهو في العربة ؛ وكان كلما تقدم في درب باب سويقة إلا وازداد شعوره بالارتياح لهذه الرحلة وباكتشافه لهذا البلد.

ازدادت سعادته لما دغدغت أنفه رائحة الأطعمة المنبعثة من الديار، وكان يودّ في قرارة نفسه لو يلبس قوفية سحرية تخفيه عن الأنظار ليتمكن من الدخول إلى كل دار ليرى ما فيها وماذا أعدّت صاحبتها من طعام شهي، وشعر فجأة بالجوع وتمنّى لو يعد له مضيفه طبقا من هذا الذي اشتمّ رائحته طوال تجواله.

وصلا أخيرا إلى بيت التاجرقرب سوق "القرانة" و"حارة اليهود" وقبل أن يدخلا صاح اليهودي في شخص واقف غير بعيد يتحدث إلى امرأة أمام باب دارها :

ـ جوزيف... تعال... تعال أريدك في أمر.

أسرع جوزيف نحو الرجلين وانحنى يقبّل يد التاجر اليهودي ثم سلم على راجوفيك بحرارة شديدة كأنه يعرفه من قبل.

دلف الثلاثة إلى غرفة واسعة مفروشة بأناقة وقد انبعثت منها رائحة بخور، وارتمى راجوفيك على مقعد وثير واستسلم للراحة وراح ينظر إلى سقف الغرفة ثم إلى المرآة الموضوعة قرب المدخل حيث انعكست صورته فالتفت إلى اليهودي وقال له :

ـ أريد أن أستريح قليلا قبل العشاء، وأغيّر ثيابي.

ـ سيساعدك جوزيف على ذلك حالما يأتي بحقيبتك من العربة... وفي انتظار ذلك اشرب هذا.

وناوله كأسا صغيرة بها شراب لا لون له فتردّد راجوفيك في شربه أولا، ولما أعجبته رائحته تجرعه كله فسرت في كامل جسمه دغدغة أنعشته وأنسته تعبه.

ابتسم اليهودي ابتسامة غبطة وقال : هذا شراب تونسي صرف إسمه "بوخة"... وهو خلاصة ثمرة التين... إنه ينعش الروح.

تواصل الشرب حتى بعد الفراغ من العشاء الفاخر إلى أن قاربت الساعة منتصف الليل، عندها قاد جوزيف ضيف سيده إلى الغرفة التي خصصت له وودعه بعد أن همس في أذنه :

ـ غدا يا سيد راجوفيك ستتذوّق شرابا أحلى من الذي شربت وستتعرف على سلعة محلية أظن أنك لم تجربها من قبل...

***

راجوفيك رجل مغامر بطبعه وإن كانت روح المغامرة قد فترت فيه منذ تعرف على حبيبتـه في راغوصيـا. لكنه عندما يركب البحر تعاوده طبيعة البحّار لما فيها من شـدّه وحرمان وقسـوة في جل الأحيان، وقد كان لابتعاده عن زوجته وولديه أثر في نفسه وفي جسـده، وزاد حرمانه من حبيبته طوال مدة السـفر في تأجج نار الرغبة، لذلك عاودته كلمات جوزيف التي ودّعه بها البارحة وقفزت إلى رأسـه خيالات عن الليالي الشـرقية المخملية وعن المتع التي يمكن أن يلقاها المرء في سهرة من سهرات الليالي الملاح، وشعر أنّ جوزيـف هـذا يمكن أن يفتح له ولو بابا صغيرا من أبواب الأحلام الشـرقية، لذلك نهض من فراشه باكرا وهو يشعر بالاستعداد الكامل للدخول في أية مغامرة تعرض عليه رغم الصداع الشديد الذي داهمه بفعل شرب البارحة.

***

جمعت مائدة فطور الصباح كلاّ من التاجر اليهودي وراجوفيك وجوزيف وكان المتحدث الثرثار هو جوزيف.

ـ سـيدي أرجـو أن تسـمح لي بمرافقة ضيفنـا المبجل إلى أسـواق المدينة فأنا أدرى منك بدروبها وقد وعدت البارحة ضيفنا بمرافقته في هذه الجولة فأرجو أن لا تحرمني من هذا الشرف.

ولم يجـد التاجر بدا من الموافقة رغم يقينه أن جوزيف سـيتحيّل على الغريب ويأخـذ منـه ماله عن طواعية. فجوزيف ذكي وخبيث وفاسـد... وخدوم حسـب المقابل.

كانت السـاعة تشـير إلى الواحدة ظهـرا حينما عاد راجوفيـك وجوزيف إلى الحفصية بعدما قاما بجولة طويلة في أسواق المدينة وكان جوزيف يحكي لمرافقه عن كل كبيرة وصغيرة، وكلما سـأله راجوفيك إلا ووجد الجواب الفوري عن تسـاؤله

حتى وصلا إلى موضوع النسـاء، وهنا ابتسم جوزيف ابتسامة خبيثة لأنه استطاع أن يجرّ صاحبه إلى المزلق الذي مهّده له...

ـ أعرف يا سيد راجوفيك أن البحارة يبحثون في كل مرفأ ينزلون فيه عن بناته ونسـائه. لكن هنا يختلـف الأمر اختلافا كليا عن مرافئ فرنسـا وإيطاليا وانقلترا وغيرهـا من بلدان النصارى وأعتقد أنـك حينما تجد ضالتك فإنها لن تكون كما تحب وتشتهي وربما تعترضك البشاعة والتجاعيد والمساحيق والرائحة النتنة... وأظن أنك رجل مرهف الحسّ متمدن لا ترغب إلا في سـلعة رفيعة ممتعة... أنا يا سـيد راجوفيـك أدلـك على مكان أنيق لا هو ماخور ولاهو بيت مومس... إنه بيت تجد فيه الراحة والجمال المحلي الأصيل... لكن.

صمـت جوزيف وهو ينظر بطرف خفي إلى راجوفيك الذي بدا مشـغول البال لكن لم تفته كلمة من حديث جوزيف فأجابه بخبث البحارة :

ـ لكن ماذا يا جوزيف ؟ أعرف أنك تشير إلى الثمن... وأظن أن لكل هذه الموانع ثمنها... والثمن باهظ على ما اعتقد.

ـ وهو كذلك يا سيدي، إني لا أشكّ في ذكائك وفي سرعة بديهتك.

ـ كم يا جوزيف ؟

ـ لا...لا... هذه الكم، لن أذكرها لك إلا عندما ترى بعينك ثم إنّ هذا المكان لا يليق بهذا النوع من المفاهمات... هيا بنا.

***

دخلا إلى دار لا يبدو على بابها ولاعلى جدرانها المتآكلة ما يدلّ على أنها دار من تلك الديار التي أطنب جوزيف في وصفها بل كانت الكآبة مخيمة على المكان، ولم يشـعر راجوفيك أن بعض العيون كانت تراقبه فقد كان خياله يسـبقه إلى ما بداخل هذا المحل.

حينمـا انفتح باب الدار بدفعة خفيفة من يد جوزيف أحس راجوفيك بالندم على انسـياقه السـريع وراء اليهودي وزاد ارتباكه لما دخلا السقيفة المظلمة، لكن جوزيف طمأنه قائلا :

ـ لا تخف يا سـيد راجوفيك... ابق هنا وسأعود بعد برهة... سترى، لن أخيّب ظنّك وسـتلقى ما تشتهي... آه... بالمناسـبة هل عندك مائة ريال... أنت تعرف أنّ في مثل هذه الأمور لا بد من بعض الإغراء... ونحن لم نحمل معنا هدية لندخل بها إلى هنا ...

ناوله راجوفيك المائة ريال فاختطفها من يده ودلف بخفة إلى داخل الدار.

لم يطـل بقاء راجوفيـك في العتمة إلا بضع دقائق فقد عاد جوزيف واقتاده إلى فناء غمرته شمس الصيف الحارة وهي في أوج القيلولة فرأى راجوفيك امرأة شـابة واقفة تحت عريشة امتدت أغصانها وأوراقها فظللت المكان بظلال خفيفة.

اقـترب راجوفيك من المرأة بعدمـا أعجبته هيأتها فقد بدت له جميلة وصورة طبق الأصل للمرأة الشرقية التي تخيّلها... شعرها اسود ليلي يتدلى على كتفيها في خصلات متناثرة، وعيناها... آه من هذا السـواد الذي لم يعرفه في عيون نساء بلاده، عيناها فيهما سحر ودفء وعمق، وفمها...

لم يتركه جوزيف يبحر أكثر في جمال المرأة بل قطع عليه تأمّله :

ـ سيد راجوفيك... أرى أنني لم أخفق وأنك لم تصدم...

وأجابه راجوفيك وهو ينظر إلى المرأة وقد بدأت رغبة جامحة تغزو حواسّه.

ـ فعلا يا جوزيف... فعلا...

ـ إذن... هات البقية...

بسـط جوزيف كفه إلى مسـتوى وجه راجوفيك فما كان مـن هذا الأخير إلا الإسراع بنقده بضع ريالات طالبا تمكينه من الاختلاء بالمرأة فورا.

استاء جوزيف لشح المكافأة بعدما عدّ القطع وقضم البعض منها ليتأكد من عدم زيفها ثم وضعها في جيبه ووقف بين راجوفيك و المرأة.

اندهش راجوفيك من تصرّف جوزيف الذي حجب عنه المرأة.

ـ لا يا سيد راجوفيك... قلت لك أن ما سأقدّمه لك باهظ الثمن... إن هذه المرأة عربية مسـلمة وأنا بهذا الصنيع أعرّض نفسـي للموت في كل لحظة... وهذه القطع

القليلة التي تكرّمت بها عليّ لا تساوي ثمن الخوف الذي أعيشه الآن... فهات ما عندك... وبعدها تستطيع أن تتمتّع بهذا الجمال كامل يومك.

رفع راجوفيك يده ليعترض على كلام جوزيف... لكن فرقعة الباب الخارجي سمّرت الجميع في أماكنهم... فاصفرّت الوجوه الثلاثة ورأى راجوفيك أن جوزيف راح يرتعد من شدة الخوف وأن المرأة هربت مولولة باكية ودلفت إلى غرفتها وأغلقت الباب بالمزلاج.

وفي لحظة، امتلأت الدار برجال العسّة فقبضوا في الحين على راجوفيك وجوزيف وخلعوا الباب الذي تخفّت المرأة وراءه ثم قادوهم جميعا خارج الدار...

تجمّع الناس لمشاهدة ذلك المنظر، وكان راجوفيك مذهولا فلم يستطع حتى الكلام أو المقاومة، أما جوزيف والمرأة فقد راحا يصيحان ويبكيان ويقاومان ويحاولان الانفلات من قبضة رجال الشرطة. وشعر راجوفيك بالغثيان يمتلكه ولم يفهم ماذا حدث بالضّبط، وقرأ في عيون الناس الذين تدافعوا لمشاهدة الواقعة، علائم التقزز والنفور والغضب.

تحرك الركب في عربة على شكل نصف صندوق حشر فيها راجوفيك وجوزيف والمرأة وأربعة رجال شرطة، وحاول راجوفيك أن يسأل جوزيف عن هذه المهزلة فصفعه شرطي وأمره بالسكوت وبذلك زادت حيرته من هذه البلية التي حلّت به، وكان عزاؤه، حسب اعتقاده، أنه لم يرتكب جريمة وأنه سوف يخرج من هذه المحنة سالما.

توقفت العربة أمام قصر الباي وأنزل الثلاثة وأدخلوا من باب ضيق يفضي إلى سرداب رطب موحش، ولم ير راجوفيك شيئا ولم يشعر إلا بيد قويّة تدفعه إلى الأرض فسقط منكفئا على وجهه وسقط عليه جوزيف ثم أغلق دونهما باب حديدي.

ـ ماذا يا جوزيف... لماذا كل هذا... ماذا فعلنا ؟

ـ إنها النهاية يا سيدي، وأنا السبب فيما حصل لك ولا أطلب منك المغفرة فذلك لن يقدّم ولن يؤخّر في شيء مما ينتظرنا غدا.

راح جوزيف ينتحب فلم يأبه راجوفيك لنحيبه فقد أظلمت الدنيا في عينيه زيادة على ظلام المكان وقذارته وشعر أنه يطفح على سطح ذكريات وأحداث وصور تعاقبت على مخيلته فلم تتركه يميّز بينها أو يركّز فكره على واحدة منها... وهاله مصيره المنتظر، وهاله سقوطه السهل دون مقاومة ودون أن يرتكب ذنبا في هذه الحفرة البعيدة جدا عن موطنه...

كان راجوفيك يطمع في نجدة من صديقه التاجر اليهودي أو من أي إنسان آخر، كان يحلم بالخروج سالما من هذه الورطة ويعود رأسا إلى مركبه ويرفع القلاع فورا ويرحل. وكان يتعجب في ذات الوقت من نفسه التي ركنت إلى مثل هذا الهدوء ولم تثر، فقد مات فيه ذلك البحّار المغامر؛ وجفاه النوم وطال سهده وكثر غمّه وبقي ينتظر طلوع الصباح لعلّه يأتي بالفرج، ولم يقدر حتى على الراحة في موضعه النتن فقد هاجمته الفئران والخنافس والقمل وأنواع أخرى من حشرات الظلام فزادت في تدهور حاله.

ومع ذلك أخذته غفوة قصيرة استفاق منها برعب على صوت ارتطام باب الزنزانة بالحائط ولم يستطع بصره مقاومة الضوء الذي شقّ الظلام الكئيب وغمر المكان، ولم يشعر راجوفيك بنفسه إلا مرفوعا عن الأرض بعنف وقد مسكه حارس قوي ودفع به إلى الأمام، وكاد يسقط على وجهه لولا حارس الباب الذي تلقاه وساعده على الخروج إلى نور النهار ونور الشمس الساطعة.

آه من الشمس... ما أجملها في هذا الصباح الصيفي... هل يقدّر له أن يراها مرة أخرى؟

سؤال لمع في مخيلته كلمح البصر ثم انطفأ حينما دفعه الحراس إلى مدرج القصر.

وقف منكسرا وسط القاعة الأنيقة فرأى وجوها عديدة تنظرإليه في صمت رهيب وتتفحّصه كأنه مخلوق غريب، ورأى الباي حمودة باشا لأول مرة واستقرأ على وجهه علامات الطيبة والهدوء فأمل في أن يكون خلاصه على يد هذا الحاكم الذي سينصفه حتما، لكن لغطا حلّ محلّ الصمت حينما دفع باليهودي جوزيف إلى داخل القاعة فسارع نحو الباي بتذلل وارتمى على قدميه يقبلهما ويتمسح

بـــالأرض طالبا العفو فأدركه أحد "الصبايحية" بقبضة حديدية واقتلعه من موضعه اقتلاعا ثم دفعه إلى الوراء فســـقط مرفوع الرجلين وكاد منظره يضحك الحاضرين لولا هيبة المجلس.

عـــاد الصمت الكئيب يخيّـــم على القاعة، وتكلم أحـــد الحاضرين وتكلم ثان وثالث ولم يفهم راجوفيك كلمة بل قرأ شيئا واحدا على وجه الباي... قرأ الغضب والعنـــف، ورأى الوجه الهادئ يتحوّل إلى وجه قاس... ولحظتها مات الأمل في صدر راجوفيك وانهار كل شـــيء لما تكلم الباي مشيرا إلى جوزيف وراجوفيك بعلامات القصاص. وكان الحكم بالإعدام على الثلاثة، وفورا...

صاح راجوفيك أخيرا ... أخذ يصيح بكل ما أوتي من قوة حتى تقدم منه رجل أوروبي كان حاضرا في القاعة وقال له وهو يحاول تهدئته :

ـ اسمعني... لا تفعل هكذا... اسمعني أرجوك، أنا قنصل فرنســـا... سأحاول بكل جهدي إنقاذك من الهلاك... سأتحدث إلى الباي، لكن هل تدرك يا سيدي أنك متّهم بالزنا، وهي من أخطر التهم في هذه البلاد.

ولم يســـمع راجوفيك بقية الكلام فقد جذبه الحراس بعنف وجروه إلى خارج القصـــر، وحينها أدرك أنه يعيش ســـاعاته الأخـــيرة وأن الصياح أو المقاومة أو حتى التدخلات لن تنقذه من مصيره المحتوم.

***

مرت ســـاعة على صدور حكم الإعدام، وتجمّع عدد من العســـكر في صفوف منتظمة بســـاحة البرج بقصر باردو كما تجمهر عدد مـــن الناس وراحوا يتطلعون في فضـــول إلى عملية الإعدام، ورأى راجوفيك غير بعيد عنه جوزيف وقد ربط إلى عمود تكومت حوله حزمات من الحطب...

ـ يا إلهي... هل سيحرقون جوزيف ؟

ونظر راجوفيك إلى حاله فلم يجدها أحسن من حال جوزيف باستثناء انه يقف علـــى الأرض وقد ربط هو أيضا إلى جذع خشـــن ولكن الحطـــب غائب... أو ربما سيأتون به بعد حرق جوزيف؟

أضرمت النّار في الحطب المحيط بجوزيف... وأخذ هذا الأخير يصيح ويتلوى حتى أصبح صراخه خوارا، ولم يستطع راجوفيك مقاومة ذلك المنظر المخيف فاغمض عينيه لكنه لم يقدر على سدّ أذنيه... إلى أن صمت جوزيف إلى الأبد بعد أن أتت النار على جسده.

بعد لحظات أدرك راجوفيك أن الموت آت نحوه في صورة رجل عظيم الجثة أصلع الرأس صار يتقدم منه شيئا فشيئا وقد بدت على وجهه علامات الشّر والقسوة، ولكن لا سيف في يده ولا آلة قتل، إلا حبل ؟... تقدم الجلاد من راجوفيك مادا يديه القويتين نحو عنقه... وتمتم راجوفيك بخوف ورجفة :

- يا إلهي... سيخنقني... لا... لا... لا إني... بـ...

ولم يتمكن من إخراج بقية الكلمة فقد أطبق الحبل الغليظ على رقبته وراحت يد الجلاد تشدّ وتضغط... حتّى خيّل لراجوفيك أن الشمس أصبحت حمراء... ثم زرقاء... ثم... اسودّت... وكانت آخر صورة في شريط حياته الذي مرّ في مخيلته بسرعة البرق... هي صورة ابنه الصغير... وقد تداخلت مع صورة حبيبته...

أما مصير المرأة التي لم يطلها راجوفيك فقد كان هو الآخر فظيعا لقد حملت في نفس اليوم إلى البحيرة بعدما حشرت حشرا في كيس خشن ربطت فتحته بإحكام إلى حجر كبير ثم ألقي بالمرأة حية في الماء الآسن حتى ماتت غرقا.

الفطـــــــــور

وقف أمام الباب الأصفر الكبير المرصّع بمسامير سوداء ثم طرقه طرقات متتالية و بقي برهة ينتظر حتى سمع وقع القبقاب على بلاط السقيفة ثم طرقتين على الباب من الداخل... و استجاب للإشارة.

ـ عَرْفي قال لك اِبْعَثْلِي الفْطُور.

ـ اِسْتَنَّى شْوَيَّة.

كان هذا الرد المقتضب يتردّد على مسمعه كل يوم فيثير في نفسه أحاسيس متشابكة، وكانت أحلى أوقاته هي اللحظة التي يبقى فيها ينتظر سماع الصّوت الرّخيم الآتي من وراء الباب. وكان يودّ لو أن الباب ينفتح بقدرة قادر على مصراعيه ليرى صاحبة الصّوت الجميل. لكن التقاليد تصدّه عن التفكير في مثل هذه الأمور و تعيده إلى الواقع.

انفتح الباب قليلا وخرجت من فرجته يد مدّت له قفّة الفطور ثم انسحبت.

اِنْشَدَّتْ عيناه لحظة إلى تلك اليد البيضاء الأنيقة ثم قفز بصره إلى وجه الفتاة التي وقفت وراء الباب، ولم يلحظ من الوجه في ظلام السّقيفة إلا خصلة شعر على جبين وضّاء، وما كاد الخيال يتحرّك به بعيدا حتى قطعت عليه متعته الخاطفة لطمة الباب وهو يغلق بعنف.

عاد إلى سـوق "الشّواشـين" وهو يحمل قفّة الفطور وخياله شارد في البحث عن قسـمات مميّزة لوجه الفتاة التي أطارت النوم من عينيه بالليل وسلبته إرادة العمل بالنهار... كل هذا العشـق والهيام ولم ير من الشابة لا العين ولا القد... إلا تلك اليد التي طالما تمنّى أن تمسك "ببلوزته" وتجذبه إلى السقيفة ليرى فقط وجه الحبيبة.

وضـع القفّة أمام عرفه الحاج مصطفى وذهب إلى قاع الحانوت ليواصل العمل وما كاد يفعل حتى سمع الحاج يناديه :

ـ ما بك اليوم.. تعال أفطر... صائم أم ماذا ؟...

امتثل للدّعوة فهو لا يسـتطيع مخالفة أوامر الحاج مصطفى حتى ولو كان ذلك أمرا بالأكل أو بالشّرب.

أعادت إليه رائحة الكسكسـي الشّهي أشـجانه فمع كل ملعقة يتناولها يتخيّل ابنة الحاج وهي في المطبخ تساعد أمها على إعداد الغداء والعشاء وهي تغدو وتروح في رشاقة الصّبايا.

بقـي زمنـا على تلك الحال وهـو يطعّم فؤاده بالخيـال إلى أن ذهب ذات يوم وكالعـادة إلى دار الحـاج مصطفى ليجلب الفطور، فحصلـت الحادثة التي حرمته مـن متعة يومه. فقد انفتح الباب وخرجت اليد تحمل القفة، وفي لحظة من لحظات جموح خياله امسك بأذن واحدة من أذني القفة فانقلب الفطور وكان يومها "مرقة جلبانة بالعلوش" وسـلاطة، وانحنى في حركة لا إرادية كأنه يريد أن يسبق الوعاء الذي سقط على حافة الباب واندلق الفطور على عتبة السقيفة.

انفتح الباب فجأة. ورآها...

أخيرا رآها وهي منحنية على الآنية التي تكسّـرت، ورفعت نحوه عينين أنسياه لحظتها أنه قلب فطورالحاج مصطفى وان نهاره أغبر.

احمرّت وجنتاها احمرارا شـديدا وارتبكت ارتباكا جعلها تغلق الباب بعنف، فكاد وجه الشاب يرتطم به لولا ارتداده السريع...

وقـف حائرا أمام الباب المغلق وتسـاءل : هل يعـود إلى الحاج مصطفى خالي اليدين أو يعيد الكرّة ويطلب من زوجة عرفه أن تنقذه من هذا المأزق وترسل فطورا

آخر إلى الحاج ؟ وسمع وقع أقدام المرأة في السقيفة ثم ارتفع صوتها مستفسرا عما حدث فأجابتها ابنتها :

ـ سي... الشباب... قْلِبْ الفطور...

عاد إلى الحانوت دون فطور وكان عقاب الحاج منعه من القيام بهذه المهمّة مستقبلا وبذلك حرم من متعة الخدمة العزيزة على نفسه.

دأبت ابنة الحاج مصطفى على رفض كل خاطب يقدم إلى أبيها، وكانت أمها تلحّ عليها في القبول بما أن الذين تقدموا إلى خطبتها هم من أبناء التجار والعائلات المحترمة ولا مجال إذن للرفض إلا لسبب واحد وهو انشغال قلبها بشاب معيّن.

كان جواب الفتاة قاطعا : لا أريد الزّواج من أيّ أحد. لكن الأم لم تسكت عن هذا الموضوع وفهمت بحدسها أن ابنتها تحبّ في صمت. لكن من يكون هذا الحبيب المجهول ؟

ذات عشية ألقت الأم بسؤال على ابنتها وهما في لحظة ودّ وصفاء.

ـ وإذا كان خاطبك هو ذلك الصّانع الذي قلب الفطور، فهل تقبلين ؟

سكتت الفتاة وقد احمرّت وجنتاها قليلا ثم قامت ناطّة من موضعها وتركت أمها في حيرة.

فاتحت المرأة زوجها الحاج مصطفى فسكت مع وجوم ولم يجب زوجته في الإبان. فبعد العشاء استحمد ثم اتكأ على مرفقه وترشّف رشفة شاي وقال :

ـ كل شيء بالمكتوب يا مرا...

انفتح المكتوب بعد أشهر من ذلك الحديث وكان في صورة حادث أليم، فقد جلس الحاج ذات صباح في مكانه المعتاد يترشّف قهوته ويردّ السّلام على الغادين والرائحين من معارفه في السوق وتوقّف أحدهم يسأل عن الأحوال ثم استشهد في سياق كلامه بطرفة جعلت الحاج مصطفى ينفجر بضحكته المعتادة...

فجأة تعطّلت الضّحكة في حلقه وتوقّفت عيناه ثم انكفأ رأسه على صدره.

مات الحاج مصطفى وهو يضحك.

ومن يومها لم يضحك محمود ولم يبتسم... حتى ابتسمت له الدنيا ذات عشية ربيعية عندما طلبت منه أرملة الحاج الحضور إلى الدار. وبعد ترحاب ومقدمة طويلة قالت له:

ـ أنت كيف ولدنا... والحاج الله يرحمو كان يعزّك ويحبك... وقال لي مرة... كان حصل وغمّضت عيني، ما يدز عليكم باب الدار... إلا محمود... واليوم أنت الرّاجل الوحيد اللي دخل داري بعد موت المرحوم... لا عندنا لا والي ولا تالي...

وفهم محمود المقصد... وابتسم ابتسامة فتحت أبواب كيانه على مصراعيها وقال :

ـ غدوة عند الفطور نجيك أنا وأمي... خاطبين... راغبين. أما على شرط... انحب فطورنا مرقة جلبانة بالعلّوش.

وضحك الاثنان ضحكة ذهبت رحمة على روح الحاج مصطفى بينما ابتسمت ابنة الحاج المتخفّية في المقصورة المجاورة ابتسامة لم تقدر على التخفيف من خفقان قلبها.

منتصف الليل ... والربع

انتصف الليل منذ أكثر من ساعة وهجع كل سكان قصر باردو إلى مخادعهم ولم يبق يجوب الأركان خارج المكان سوى عسكر العسّة وبعض الحرس الخاص على الأبواب الأميرية.

كان "ماركو الجنوي" من بين الحرس الخاص، وقد عرف بشدة تفانيه لمولاه حمودة باي المرادي وبأسه الشديد في الدفاع عنه، وبالخصوص في هذه الظروف العصيبة التي يعيشها الأمير من أجل الحفاظ على موقعه في سلطة ينازعه عليها اخوته وأقاربه، لذلك كانت العسّة على اشدّها حول قصر باردو وبداخله وأمام كل أجنحته، وقد اختار ماركو أن تكون نوبته بالليل وبالذات أمام مدخل القصر، لأنه أصيب منذ اشهر بالأرق ولا ينام إلا عند انبلاج الفجر.

كانت الليلة هادئة هدوء الفصل الربيعي، وكان لا يقطع صمتها سوى نباح كلاب آت من ناحية بساتين منوبة، وكان ماركو يقتل الوقت جيئة وذهابا ويتفقد الحرس، وحين اطمأنّ إلى استتباب الأمن اتجه ناحية حارس متقاعد من بني ملّته اختار الإقامة في "براكة" أقيمت بطرف منزو من حديقة القصر واتخذها نقطة لبيع المشروب الساخن أو لإعداد القهوة التركية لمن يرغب في مغالبة برد الليل.

واتجه ماركو إلى العجوز سائلا :

ـ جوفانـــي... هـــل بقي كأس من مشـــروب الخروب... أحسّ بالسّـــعال يداهم صدري.

ـ أهـــلا بماركو... اجلس... اجلس قليلا حتى اســـخّن مـــا طلبت... معك حق، فالليلة باردة رغم أن نهار الأمس كان مشمسا...

وبعد صمت قصير همس جوفاني سائلا :

ـ هاه... ما هي أخبار الأمراء المتخاصمين ؟

ـ أوه... جوفاني دعني من هذا الموضوع وهات ما عندك من شراب ساخن فلم يبق على انتهاء نوبتي سوى ساعة ومازال أمامي ركض طويل...

وقاطعه العجوز :

ـ أوه... أنت شحيح في كل شيء، ولا تريد تسريب أي خبر عن أهل القصر ولا تمـــنّ عليّ حتى بقليل من الحلويات التي تأكلونها هناك... ولا حتى بقطعة نقدية صغيرة لأبن بلدك جوفاني العجوز... يا حسرة على أيامك يا اسطا مراد...

شرب ماركو جرعات متتالية من ذلك المشروب السّاخن فبدا له مقرفا هذه المرة، ولمـــا أنهاه على مضض رمى بقطعة نقدية في يـــد جوفاني وانصرف ناحية مدخل القصر دون أن يردّ بكلمة.

ما كاد ماركو يضع رجله على آخر درجة من درجات سلّم المدخل حتى سمع جلبة آتية من ناحية جناح الحريم فاتجه صوب الضّجة ليســـتطلع الخبر وقد ظنّ أن إحداهـــن قد حضرها المخاض، لكن أحد حراس الجناح أخبره أنّ حظيّة من حظايا الباي قد أصابها مغص مفاجئ وانهم أرسلوا في طلب أحد أطباء القصر، لكن يظهر أن الأطباء الطليان الثلاثة ورئيسهم غير موجودين هذه الليلة بالقصر لأنهم خرجوا في العشـــية لحضور حفل في فندق الجنويين بباب البحر ولم يرجع أي واحد منهم رغم وجوب قيام أحدهم بنوبة الليل.

احتار ماركو برهة وخاف على مصير الأطباء الثلاثة لو حدث مكروه للمريضة فقفل ركضا ناحية الدّيار المحاذية لقصر باردو للبحث عن طبيب عجوز كان في ما مضى طبيبا لمراد باي.

عاد بعد ساعة يجرّ الطبيب العجوز بعدما اقتلعه من فراشه اقتلاعا واعدا إياه بمكافأة سخية مقابل تعبه، ولما دخلا جناح الحريم علما أن المريضة مازالت تتوجّع فأمر الطبيب بإخلاء غرفة المريضة من النساء اللائي هرعن لاستطلاع الأمر ثم راح يتفحص المريضة بينما وقف ماركو غير بعيد عن جناح الحريم بسبب المنع الصارم من الاقتراب من هناك اكثر من اللزوم، فبقي في انتظار الطبيب العجوز ليعود به إلى داره.

هـدأت الحركة تمامـا في أروقة القصر بعدما نجح الطبيب في تهدئة آلام المريضة وعـادت كلّ الفضوليـات إلى مخادعهن وبقي ماركو يقـاوم برد أواخر الليل جيئة وذهابا ونفخا في يديه، ينتظر بفارغ الصبر خروج الطبيب. لم يمض من الوقت سوى بضع الساعة حتى خرج الطبيب ونادى ماركو فأسرع إليه الشاب وأخذ بيده وقد حسـب أنه أنهى مهمته، لكن الطبيب دعاه لمساعدته على إعداد غرض طبي عجز عن القيام به نظرا لضعف بصره.

تردّد ماركو لأنه يعرف انه سـيلقى بنفسه إلى التهلكة بصنيعه هذا، وانه ممنوع من الدخول علىالحريم مهما كانت الظروف ومهما كان السبب.

لكن العجوز طمأنه قائلا :

ـ لا تخـف يا ماركو... لن تبقى معي إلا بضع دقائق، لقد طمأنت الجميع على سلامة المريضة، وكما ترى لم يبق أحد حولها.

دلف ماركو إلى الغرفة الصغيرة وقلبه واجف وعيناه لا تسـتقران في مكان، ثم أغلق الباب بسرعة وتقدم من فراش المريضة.

تسـمّر ماركو في مكانه وهو يرى لأول مرة ذلك الوجه الرّاقد وقد علاه بعض الشـحوب وتراقصت عليه بعض الظلال الخفيفة بفعل أضـواء خافتة انبعثت من شمعدان قريب، فخيّل لماركو أنه في حلم ممتع، فنسي حاله وغفل عن السبب الذي دخـل مـن أجله، وراح يتخيّل خيالات متقاربة جدا مـع تلك التي كان يتخيّلها دائمـا كلمـا سمع بحكاية غريبة عن عالم الحريم الـذي لم يدخل إليه أبدا، ولم ير امرأة واحدة من نسـائه، وها هو الآن وبقدرة قادر يدخل إلى جزء منه بكل بساطة ودون مغامرات.

راح ماركـــو يدرس أدقّ تفاصيل جناح الحريـــم من الخارج ويبحث عن فجوة تمكّنه من الوصول إلى تلك الغرفة دون إثارة الشكوك، فلم يجد حيلة ولا فكرة ولا حتـــى كيـــف يقترب مرة أخرى من داخل الجناح فقد بدا له معزولا حقا عن بقية أجنحة القصر، أو هو محميّ حقيقة ببقية أجنحة القصر، فحتى النوافذ القليلة المطلّة على الحديقة لا يمكن الوصول إليها إلا باستعمال السلّم وهذا أمر لا يمكن التفكير فيـــه فضلا عن محاولة تنفيذه، فالويل لمن يحاول التعدّي على حرمة الحريم، فالموت المريع اقرب له من إطلاق صيحة.

إذن ... ما العمل وقد بدأت هذه الاستحالة تزيد في تأجّج نار ماركو، وتدفعه إلى التعنّت لتنفيذ ما خامر ذهنه من أفكار شيطانية ؟

***

مرّ أســـبوع وماركو في تشـــنّج وحيرة، فقد اخفق في الوصول إلى مبتغاه رغم ما بذله من جهد وما اســـتنبطه ومن حيل للاقتراب من مخدع شـــاغلة البال، وأيقن في النهايـــة أنـــه لن يصل إليها، فزاد ذلك في إضرام نار الوجد في قلبه حتى ظنّ أنه لم يعشـــقها فقط، بل اصبح يحبّها فعلا رغم انه لم يرها ســـوى تلك الليلة ولم يسمع صوتها الواهن إلا للحظات.

دار حـــول القصر وتوغّل في حدائقه وطلع حتى على الســـطوح مفتعلا القيام بدوريات عله يجد الثغرة التي توصله ناحية الحبيبة، ولم يجد ما يشـــفي غليله ولو شـــجرة قريبة يتســـلقها ليلا أو حتى عمود منســـيّ أو حتى... أو حتى... وكاد يجنّ ويقدم على فعل يودي بحياته في الحال لكنه تعقل قليلا وأعاد ترتيب أفكاره.

وفجأة اعتقد أنّه وجد الحلّ أو لقي من يدلّه على الحلّ؛ فتوجّه بعد انتهاء نوبة الحراســـة إلى صديقه الطبيب العجوز وقد حمل إليه هدية ثمينة لم يكن ليهديها إلى ذلك الرجل الخرف لولا كبر المسعى الذي يسعى إليه.

ـ قـــل لي يا طبيب... كيف أصل إليها... وأنت العارف بدواخل القصر وبعادات أهلـــه... دلّني على حيلة وعليك الأمان... ولن يعرف ســـرّنا أحد حتى لو عذّبوني عذاب الجحيم.

حدّجـــه الطبيب العجوز بنظرة كأنها نصل برّاق ونهره عن غيّه ونصحه نصيحة الأب وصوّر له المخاطر الجمّة التي تحوق بمثل هذه الأفعال وذكّره بأنه مملوك مؤتمن وأنّ عليه طاعة أسياده والمحافظة عليهم لا خيانتهم أو حتى مجرّد التفكير في ذلك.

وقاطعه ماركو بلهجة جافة :

ـ طبيـــب... الأفضـــل لي أن أصل إليهـــا وأموت بعد ذلك خير مـــن بقائي أعدّ الليالي السّـــود وأحلم بها وألوم نفســـي على القعود وهي مشـــتاقة إليّ وأنا مشتاق إليهـــا... اعطني الحل يـــا طبيب إن كنت تريد لي النّجاة مـــن جنوني، اعطني الحلّ وسوف أضاعف مكافأتي لك.

ـ ماركو... خذ هديّتك فلست بحاجة إليها... أنا أريد أن أموت في فراشي كبقية خلق الله فلم يعد يفصلني عن قبري سوى زمن قصير فلا تفسد عليّ نعمة الرّب واذهب أنت لحتفك لأنك وبكل بســاطة قد فقدت العقل واســتبدلت حبّ الحياة بحبّ امرأة سيكون طالعها نحسا عليك.. اذهب واعتبر أنك لم ترني أبدا.

خرج ماركو كسير الجناح وفي يده هديّته التي أعادها إليه الطبيب وارفقها بآخر النصائح الطيبة، لكن الشـــاب العاشق لم يسمعها لأن قلبه قد خطّ له السبيل التي سيتبعها بعدما عمي عن رؤية اليقين.

***

ذات منتصـــف ليلة بعد مرور أيام على لقـــاء ماركو بالطبيب العجوز، ترددت كالعادة دقات ســـاعة برج قصر باردو، وتموّج صداها إلى مســـمع ماركو الذي كان يقوم بالحراســـة من ناحية الســـور الخلفي للقصر فتوقف لحظة وهو يتخيّل حبيبته تطلّ عليه، من نافذة أو حتّى من كوّة فرفع رأســـه ورشـــق بصره في النوافذ البعيدة علّه يرى وجهها... لكنه ســـرعان ما عاد ببصره إلى الأرض في حســـرة وأسف، فقد كانت النوافذ جامدة ولا يمرّ منها حتى بصيص من نور.

تنهّد بعمق ثم واصل ســـيره الرّتيب حتى تنامت إلى مســـمعه دقّات أخرى من دقات تلك السّـــاعة تشـــير إلى منتصف الليل والربع، ولم يعرها اهتماما ولم يتوقّف عن المشـــي، فقد انعدم الوقت بالنسبة إليه ولم يعد مهمّا، فهو يستطيع السّير هكذا

دهرا لو وعدوه بالظّفر بحبيبته في آخر المطاف. وابتسم بتهكّم لأنه ركب المستحيل بعدما أصرّ قلبه على حبّ لن يطوله.

فجأة انتزعه من أحلامه ارتطام شـــيء بالأرض غير بعيد عنه، فانتفض وسلاحه موجّه نحو مصدر الصوت وعيناه تجولان طولا وعرضا في الظلام، وتجمّد في مكانه برهة، ولمّا أيقن أن كل شيء على ما يرام، وأنه ربما أخطأ أو خيّل إليه أنّه سمع صوتا مريبـــا، تقهقر إلى الوراء حتى وقعت قدمه على جســـم رخو فانحنى ليلتقط ذلك الشيء الذي بدا له في بهرة النجوم كأنه لفافة أو منديل مكوّر؟

فعلا انه منديل حريري ورديّ اللّون، أو هكذا بدا له.

ترى ماذا بداخله؟... حلوى... هل أصبحت السماء تمطر حلوى ملفوفة في مناديل حريرية ؟ ثم إن للمناديل رائحة عطر نسائي...يا الله... ما أفوحها...

تشمّم ماركو بعمق تلك الرائحة حتى اعتقد أنها سكنت أعماقه، ثمّ أخرج قطعة الحلوى وقرّبها من فمه لكنه أعادها فجأة إلى موضعها وقد شكّ في أمرها... فمن يدري ربما تكون مسمومة ؟... لكن من رمى بها إلى هنا ؟ أو من رماها له ؟

عاد يجول ببصره في الحائط العالي ويوجع عينيه ليخترق الظلام ليعثر على شبح الرامي المجهول...

ترى من يكون .. أو من تكون ؟

- وحقّ الرّب.. وحقّ "المادونا" لن تكون سوى هي...

كاد ماركو يصيح بالكلام ويفضح ما كان يجول بخاطره من أســئلة، ونســـي حاله وغردت نفسه بفرح مفاجئ وكاد يرقص بعدما فهم الرسالة... إنها اعظم وأحلى رسالة في الوجود.. فهي لا ترسل إلا للمحظوظين أمثاله.. وقرّبها مرة أخرى من انفه وشمّها ثم وضعهـــا علـــى صدره ناحية قلبه ونظر إلى نافذة عالية تقع في الخط الذي ســـقطت منه الرسالة وأرسل نحوها قبلة على الهواء، ولمّا أيقن انه لن يتلقّى لا إجابة ولا إشارة واصل القيام بمهمته وقد تحوّلت ظلمة الليل في نظرة إلى ضوء مشعّ أنار جنبات الدنيا.

***

مضت ليال أخر على تلك الليلة السعيدة فقد أمسى منتصف الليل والربع بالنسبة لماركو أعزّ أوقات حياته فهو يعيش من أجله وينتظره بتطلّع ناسيا السّاعات الأخرى من يومه وليله ، وكان يتحرّق شوقا لرؤية الوجه الحبيب الذي لم يطل عليه ولو مرة واحدة رغم مرور الأيام والليالي ورغم تواصل الودِّ الخفيّ في شكل حلوى تسقط عليه كل ليلة من تلك النافذة التي استطاع أخيرا تحديدها، ولم يبق له إلا الحيلة للوصول إليها من الداخل...

آه.. من هذا الداخل الذي استعصى عليه الآن واصبح من باب المستحيلات بعدما أيقن أن صاحبته تبادله الشعور وترغب هي الأخرى في لقياه لكنها لم تجد سبيلا لذلك سوى رمي الحلوى الملفوفة في المناديل المعطّرة.

قنع ماركو بالصّبر دون أن يغفل عن تصيّد الفرص واستقصاء الخبر بحثا عن حيلة للوصول إلى غرفة الجارية دون إثارة الشكوك، لكن طال الانتظار وكاد يعيل صبره بعد انعدام الخلاص المرجوّ وقرّر في آخر المطاف أن يعدل فعلا عن الجري وراء المستحيل لولا الصّدفة التي جاءت على حين غفلة وفتحت له باب الحلّ على مصراعيه، وكان ذلك ذات ليلة.

كانت الليلة شتوية قاسيّة تهاطل فيها المطر مدرارا وعصفت الرياح بكلّ شدة ولعلع البرق حتى أخاف وقصف الرّعد حتى زعزع الأركان والقلوب ومع ذلك أمر "باش مملوك" رجاله بالاستعداد كالعادة لحراسة القصر من كلّ جوانبه وعدم اعتبار هذا الطقس تعلة للركون إلى الراحة، وكان من بين هؤلاء ماركو الذي تقبّل هذا الأمر بكلّ ارتياح لأنه لن يحرمه من موعده الغرامي المعتاد، ومن يدري ربما تنفتح له أبواب السماء صدفة لتجمعه بالحبيبة خصوصا أن الحرس لن يكونوا يقظين كالعادة بسبب رداءة الطقس واستحالة اقتراب أي مخلوق من القصر في مثل هذه الظروف.

أخذ ماركو مكانه المعتاد بعدما تدثّر جيّدا واحتمى بسقف الحامية الخشبية المخصّصة للحرس وبقي يرقب تلك النافذة التي غيبها المطر.

اقترب موعد منتصف الليل والربع ولم ينقطع لا المطر ولا قصف الرّعد لكن البرق كان يضيء المكان للحظات ويمزق الظلام ليسطع على تلك النافذة التي ظلت صامتة عمياء.

في منتصف الليل والربع اضيئت تلك النافذة التي اعتادها ماركو بما أنها صارت نافـذة حياتـه ومنطلق آماله، فمنها تأتيه الحلوى في مناديل معطّرة ومنها يتطلّع إلى دنيا وردية.

فجأة أطلّ منها شـبح، انه شبح رأسها... دون شك، لقد أطلّ رغم غضب الطقس مما دفع ماركو إلى الخروج من مكمنه والسير تحت المطر العاصف وعيناه لا تريان سوى ذلك الشّبح الذي حافظ على موعده الليلي ولم يخلفه رغم ما ألمّ بالطّقس من قسوة.

لم تغلق النافذة بسرعة بل انطفأ الضوء وبقي الشبح... ففتح ماركو عينيه جيدا لـيرى الحبيبة.. متحدية كل النواميس، محتمية بغضب الطبيعة لتدعوه إليها في غفلة من كل الدنيا.

خيّل لماركو وهو في هيامه أن حبيبته تشير بيدها نحوه وتدعوه إليها ؛ ولحظتها قفز قلبه فرحا ووجلا من هذا اللقاء الذي طالما تمنّاه ولم يسـتطع تحقيقه، وها هو مدعوّ إليه الآن وما عليه إذن إلا أن يتحدّى المستحيل ويبرهن لها أنه بطل فعلا لا يقف في وجهه أي عائق.

نسي ماركو أنه مكلّف بالحراسة وأنّ عليه ألاّ يغادر مكانه مهما كانت الظروف، لكنه لن يعترف هذه الليلة لا بالظروف ولا بالانضباط ولا بالباي نفسـه فلا أحد يحسّ بما يحسّ به الآن من تأجج وطوفان.

اتجه ماركو ناحية مطبخ القصر وطرق الباب الصغير وهو يمنّي النّفس بأن يفتح له أحد الخدم رغم تأخر السّاعة، وواصل الطرق رغم ضياع صداه في العاصفة، ومع ذلـك فتح الباب بعد قليل واطلّ منه رأس وصيـف متناوم اقتلعه الطّرق الغريب من عزّ النوم...

ـ افتح.. افتح يا أسـود.. يظهر أن أحد السّـقوف يقطر ماء... دعني ادخل قبل أن يغرق المكان...

أبعد ماركو الوصيف المتناوم من طريقه وتوجّه إلى رواق يعرفه وهو يدعو في سره أن لا يعترضـه حرس في إحدى الرّدهـات رغم يقينه أن القوم نيام ولا أحد يغامر

بالخروج من فراشه في هذا البرد القارس، ومشى طويلا دون أن يحدث ضوضاء كأنه قط يسعى إلى فريسة.

وصل أخيرا بعد معاناة الخوف والتّردد إلى جناح الحريم ووقف برهة ليحاول تهدئة نفسه وعيناه إلى كلّ الأركان ويده على سلاحه، ولم يأبه إلى تبلل ثيابه والى البرد الساري في عظامه، ففورة الدماء في عروقه تذيب حتى الجليد.

اقترب من الباب فرأى الخصي المكلف بحراسته يغط في نوم الناعمين، فتخطاه بحذر شديد ثم أدار كرة القفل فانفتح الباب.

اصطدم أنف ماركو بروائح العطر العابقة في فضاء الرّواق، فمشى برفق وهو لا يدري أي باب يفتح، ولما طال تردده شعر بأنه على شفا هاوية وأن صيحة واحدة من امرأة تفضح وجوده كفيلة بإعدامه حالا، لكن لم يحدث أي شيء فأخذ يستعيد في مخيلته موقع النافذة من هذه البناية ويقيس حسب التقريب موقعه هو منها ثم أسلم قراره إلى حدسه فإن نجح في الوقوف على الباب المرجو كان له ما أراد وان فشل...

فجأة وقبل أن تصل يده إلى موضع سلاحه فتح باب فانزلق من فرجته ضوء خافت وأطلّ رأس...

أيكون رأسها ؟ نعم دون شك.

دلف ماركو إلى الغرفة ثم أغلق الباب وراءه واتكأ عليه وهو لا يكاد يستقيم من فرط الانفعال، ولما هدأ قليلا وتعوّدت عيناه على الضوء الخافت المنبعث من شمعة، نقل بصره إلى حيث تقف صاحبته فرآها في ذلك الإطار الذي يشبه إلى حد بعيد حلما من أحلامه وقد تمثّل في جسد متكامل عليه غلالة زادت في روعته، وسمعها تهمس له دون أن يرى وجهها المحتجب في دائرة الظلمة :

ـ تعال...

لم يدر ماركو لحظتها لماذا تعطل فيه كل شيء حتى كاد يتحول إلى صنم، لكنه أراد قول كلمة فَهَمْهَمَ، فما كان من المرأة إلا أن أعفته من عناء المبادرة وتقدمت منه ووضعت أناملها على شفتيه ثم همست له بصوت لا يكاد يسمع:

ـ الموت يترصّدنا في كل لحظة وليس لنا الوقت الكافي للكلام... ولا ندري متى نرى بعضنا في المستقبل.. فلا تضيّع هذه اللحظات الغالية..

وطوقته بذراعيها المحمومتين فما كان منه إلا أن انساق بكل جوارحه إلى هذه الدعوة التي لم يكن ينتظر أن تكون على تلك الشاكلة.

وكانت لحظات محمومة لم يدر كم دامت ولم يدر كم غرف من متعتها فقد عاش حلما لن يعيش مثله أبدا.

***

خرج ماركو من تلك الغرفة وسعادته تحمله على جناحين، ولم يشعر بأنّ بابا آخر قد انفتح وأطل منه رأس... رأس آخر حمل كل غضب الدنيا وكل انفعالات الغيرة وسعيرها وكل قهر الإحباط وثورة الانتقام...

لم يدر ماركو أن الظّلام كان عدوّه، وأن الإرتباك هو الذي أعماه، وأنّ اللّهفة كانت مبتغاه، فلم يستطع التمييز بين الحقيقة وبين مسعاه، فسقط في خدعة كبيرة لم يتفطن إليها أبدا.

لم يكن الباب الذي انفتح له هو باب حبيبته... ولا كانت المرأة التي استقبلته وسقته من نبعها هي شاغلة البال، بل كانت جارية أخرى، هي غريمة صاحبته، فقد اكتشفت هذه الغريمة ومنذ مدّة ما كان يدور في نافذة جارتها، فأعجبت هي بدورها بماركو، وقرّرت أن يكون لها ولو لليلة واحدة، فبقيت ترصّد حركاتهما إلى أن كانت فرصة هذه الليلة... فاستغلّتها بالكامل وخدعت العاشق الولهان وأوهمته أنها هي المبتغى، فاستمتعت بالكامل تاركة الأخرى على نار متأججة.

اكتشفت عاشقة ماركوالحقيقة، بعد فوات الأوان، فاعتقدت لحظتها اعتقادا جازما أنّ حبيبها لم يكن لها... وأنه خانها واستعمل نافذتها والوقوف تحتها لكي يصل إلى الأخرى، وأنه بفعلته تلك احتقرها احتقارا مقيتا، وانه خدعها خدعة لن تبرأ منها أبدا، فعزمت على الانتقام لحظة رأت ماركو يتسلّل في الظلام من مخدع جارتها بعدما ارتوى، ولم تجد أفضل من فكرة التخلص من الاثنين حتى تشفي غليلها وتجبر ما أصاب فؤادها من انكسار.

لكن ماركو المسكين لم يكن ساعيا بكل وجدانه إلا إليها هي، لا للأخرى، وأنه هو المخدوع حقيقة، لا هي.

في صباح الغد... هدأ المطر وانقشعت السماء على شمس باهتة، وكان ماركو قد استسلم للنوم منذ ربع ساعة فقط، لكنه لم ينعم به طويلا فقد انشق الباب فجأة ففتح عينيه في ذعر شديد ليرى جمهرة من الحرس يصفدونه في الأغلال ويستلونه من مرقده ويجرّونه جرّا إلى الساحة الخلفية لقصر باردو، ولحظتها فهم أن أمره قد انكشف وأنّه سيدفع لحظات متعته غاليا... فحاول أن يقول كلاما وأن يتخبّط وأن يصيح فلم يقدر، فقد كمموا فمه وغللوا حركته، وحينما رأى مدفعا كبيرا ركّز وسط الساحة أصابه ذعر ساحق وفهم لحظتها كيف سيكون إعدامه فراح يصيح بكل ما أوتي من فورة الحياة، لكن صياحه انكتم وسط همهمة الرجال الذين طوّقوه ثم أوقفوه أولا أمام فوهة المدفع وبعد عناء أوثقوه إليها ولما تم لهم ذلك تقهقروا كلّهم في حلقة كبيرة تاركين "الباش طبجي" يستعدّ لاعطاء الإشارة لإشعال فتيل المدفع.

مرّت على ماركو لحظات رعب قصوى وهو يرى نفسه موثوقا إلى فوهة المدفع الكبير، فبحث من خلال دموعه عن وجه يرحمه فلم ير إلا وجوها مثل الصّخر، وفي ومضة الإدراك بعزّ الروح انتفض وحاول التخبط والاستغاثة، لكنه لم يقدر فرفع بصره ناحية تلك النافذة لكنه لم يمهل فقد دوت في الفضاء طلقة المدفع هزّت المكان هزّا وأطارت جثة ماركو إلى أشلاء تشتّتت في كل النواحي.

انقرض ماركو وهو لا يدري انه لم يصل أبدا إلى حبيبته وأنّ حبيبته هي التي كانت السبب في فنائه دون أن يدرك الاثنان حقيقة ما حدث.

الفهـــــــــــرس

سرّ في سوق النساء 5

مبروك الوصيف..... 11

الورقة الحرام 29

المحيّط 35

البشمق 53

مدام "ش... 59

الكروسة..... 65

كان يشبهك..... 77

الربان الراغوصي 83

الفطور..... 97

منتصف الليل والربع..... 101

حسنين بن عمّو

من مواليد دار شعبان الفهري.

اهتـــم بتاريخ تونس الوســـيط والحديث وطوّعه في شـــكل روايات صدرت متسلسلة على أعمدة الصحف التونسية.

الكروسة

مجموعة حكايات من وحي تجوال في أزقّة مدينة تونس ذات بعض العشايا بحثا عن ذاكرة طواها الماضي واســـترجاع لصور بهتـــت ألوانها بفعل الزّمن، صور ليتنا نحفظها دوما في "أَلْبُـــــــوم" القلب.

نـــــالت مجموعة "الكرّوسة"

جائزة "علـــي البلهوان الأدبية" لمدينة تونس سنة 1999.

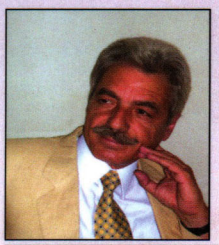

حسنين بن عمّو

الكرّوسة

مجموعة حكايات من وحي تجوال في أزقة مدينة تونس ذات بعض العشايا بحثا عن ذاكرة طواها الماضي، واسترجاع لصور بهتت ألوانها بفعل الزمن.

صور ليتنا نحفظها دوما في «ألبوم» القلب.

* * *

... تقدم الشاب الغريب من «لوسيان» دون أن يمدّ له يد المصافحة واقترب منه ثم همس له وقد ركّز بصره على الكروسة الجديدة التي برقت من كثرة الزينة ومن حسن الطلاء.

- هل تعرف يا «لوسيان بياضة» أنك صنعت تابوتا متحركا ؟...

جائزة علي البلهوان الأدبية لبلدية تونس سنة 1999

الثمن : 7,500د.ت

مكتبة نوميديا 208
Telegram@Numidia_Library